بسم الله الرحمن الرحيم

أبناء الدموع

رواية

أبناء الدموع

هاشم الشريفات

الطبعة الأولى
2023م

دار كفاءة المعرفة
طباعة • نشر • توزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2023/3/1614)

813.03

الشريفات ، هاشم عوده عبد الرزاق

أبناء الدموع/ هاشم عوده عبد الرزاق الشريفات.- عمان: دار كفاءة المعرفة للنشر والتوزيع، 2023.

(   ) ص

ر.إ: 2023/3/1614

الواصفات: الروايات العربية //الأدب العربي//العصر الحديث

ردمك : ISBN:978-9923-39 -145-7

Copyright ©

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

دار كفاءة المعرفة
طباعة • نشر • توزيع
kafaat.almaerifa kafaat.almaerifa@gmail.com
+962796803670 +962799291702 +962796914632

دار أمجد للنشر والتوزيع
طباعة • نشر • توزيع
daramjadbooks amjadbooksdp daramjadbooks
dar.amjad2014dp@yahoo.com daramjadbooks@gmail.com

إبصار ناشرون و موزعون
المحترفون الأردنيون لصناعة برايل
ibsarBraillejo ibsarbraillejordan@gmail.com

للتواصل و الإستفسار: +962796803670 +962799291702 +962796914632 Tel:+9624652272 Fax:+9624653372

على سبيل التَّقديم

النّفس البشرية ميدان واسع تتصارع فيه الرغبات، وواد سحيق لا يسّبر لهُ غور، وحقل أخضر من الآمال والأحلام، وجحيم مستعرٌّ من الأنّات والزّفرات، ومضمار أزلي تجري فوقه الأوجاع والآلام، وهي بحر عميق اللّجة من الأسرار ما ينفك عبابه يضطرب اضطرابا، وهي لغز الألغاز وسر الأسرار ومنبع الغموض وموطن السحر؛ لذلك كله أخذ علماء النفس والفلاسفة والاجتماع بدراستها خلال مراحل نمو الإنسان في خط حياته من طفولته إلى شيخوخته، ودراسة ما يطرأ عليها من أحداث وظروف وتأثيرها فيها، ووضعوا كذلك نظريات تربوية ونفسية تلملم أطراف النشأة وأوصال المعيشة في المهد وما يتلوه من أطوار الحياة، ثم توجهها صوب مرآة النقد والتحليل لترى في ضوئها ما ينعكس على دواخل الإنسان من أثار نفسية لا تزول إلا بزوال حياته، وتظل خلالها تؤثر في نظرته وتلقيه وقبوله لشتى الأمور الدنيويّة، وأخال أن كاتب هذه الرواية قد جاء بإحدى هذه النظريات أو بمجموعة منها ثم أسقطها في قالب أدبي ممتع للقارئ والمتلقي ابتغاء طرح فكرة، أو نقد ممارسات تربويّة خاطئة، حيث يضمن النص بعدين نفسيين

متجاورين أحدهما يدور حول الأخيرة وثانيهما ينتهي إلى آثارها النفسية، ونرى ذلك جليّا في سياق الرواية.

وقد قرأت هذه الرواية فأعجبني فيها عمق الدلالة، وقوة التعبير، وغزارة اللفظ، والتعبيرات الجزلة، وكل هذه نفتقدها اليوم حقا في غالبية الروايات التي يلجأ أصحابها أحيانا إلى اللفظ العاميّ للتعبير عن خوالج نفوسهم. أما الكاتب هاشم الشريفات فأعرفه صديقا لأبنائي، ومتخصصا بارعا في علم الجغرافيا، وأخاله كاتبا سوف يتفتق قلمه عن إبداع أدبي رائد في السنين المقبلة.

عبد الرحمن المبيضين

عضو الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين

1

الثامن والعشرون من ديسمبر، مطلع الشتاء، فصل الأحزان. تكاد الطرقات المبلّلة تخلو من السّابلة، وأوراق الأشجار مغسولة بالرياح والمطر، وريّا[1] الأرض التربة يمرُّ مع الهواء الرخاء ويترك في النفوس أثرا لطيفا حالما، والأفق يظهر فضّيا ساعات النهار ثم لا يلبث أن يزرقَّ عند حلول الظلام الذي بدأ ينيخ على الأرض في الأيام الأخيرة أبكر من المعتاد. القلب مرتع للهموم معينه لا ينضب، والفؤاد يتضرم بأشواقٍ لأشياء لم يعد لها وجود، وعلى الصدر ترين غشاوة من كمد تستلزم إزاحتها غسلا ساخنا من الدموع كما يستلزم بُحاح الحلق نقيع الأعشاب الساخن. ومهما تجلت الحياة سعيدة أو مهيأة لنزر يسير من السعادة -وقليلا ما تجلت لي كذلك- ردّني سحاب الهموم إلى مناقع[2] الأحزان الآسنة مطرا حمضيا. وفي سيرة حياتي التي أبتدئ في خطها الآن، سيجد القراءُ مردا للحزن ومسببات للأسى والشقاء، ولو توخيت[3] أن أصف لكم نفسي -أيْ معشر القرّاء- في كلمات قليلات، لقلت ببساطة إني رجل لا أصلح للحب، هذا التيار الجارف

[1] الرّيا: الريح الطيبة.

[2] جمع مستنقع.

[3] توخى الأمر: أراده.

والآسر معا، الذي ظلت حياتي بدونه كأنها جسد مبتور الأعضاء في صورة دلالية بالغة الوصف، بل كثيرا ما ألقيت تبعات إخفاقي في تكوين أية علاقة إنسانية مهما كان تصنيفها، أو في درء أي مشكل من مشكلات الحياة اليومية، أو حتى في عجز العقل عن استنباط رد في موقف حرج من مواقف الدنيا والناس، كثيرا ما ألقيت كل ذلك على تبعات فقدان الحب، ولعله تبرير سطحي يحتاج الدرس والفهم والإدراك شأن كثير من النظريات البشرية. فهل للحب حقا قيمة فعلية يُستعلم عنها أو تستنبط دلالاتها؟!.. وهل فيه شفاء لنواقص الذات يرجى ويدرك بالإحساس؟!.. مهما يكن من أمر فلست جديرا بتكوين صورة واضحة الأُطر خالية من العواطف والانحيازات في هذا الباب غير الموارب، وكم أنا بعيد كل البعد عن ربط أسباب بذوات كاملة بعضها إلى بعض، غير أن الحب مستملح وهو احتياج وجودي له شطر كبير من الدوافع النفسيّة والأنّات البشريّة، بل إنّي أخاله عماد ركن شعوري في الإنسان لا يدانيه شيء من المشاعر والأحاسيس، فأنا والحال هذه إنسان فاقد لجوهر المشاعر الأساس، بل لعلني ضائع بقلب مكلوم في دنيا الوحدة التي تكتنفي اكتناف الهواء المحيط، وتائه بين مخلوقات لا أنتمي لها وليس ثمّة من مكان بينها ألوذ به، ومهما حاولت أن أفهم نفسي في خضمّ هذا الموج المضطرب جهلت منها الشيء الكثير. آه لقد بترت احتياجاتي العاطفية بترا وكأنها عضو جسدي فاسد مد الجراح يده إليه فاستأصله! فمضت حياتي بعد ذلك بلا أدنى تفاعل عاطفي حتى مع

أمسّ الناس بي رحما[1]، حتى أمي التي كانت المركز الذي تدور حوله حياتي لم أكن لأشعر نحوها بعاطفة صادقة خالصة اللّهم إلا في بواكير الطفولة، بل كثيرا ما كنت أبغض الحديث معها ولا أحتمل له وقعا حتى في توافه التفاصيل اليومية، وكم كنت أصر على نواجذي في محضرها إذا ما استهزأت بي أو نهرتني أو حملتني على الطعام والشراب حملا أو حتى إذا تفكرتُ ذاكرا أنها السبب الذي قذف بي إلى مجاهل هذه الحياة! وقد كانت الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي استطعت أن أرفع صوتي في وجهه ثائرا معارضا في حين لم أكن أقوى على النظر في أعين غيرها من الناس، ورغم ذلك لم أكن أكرهها كرها شعوريا واضحا، وأيضا لا أستطيع القول بأني أحببتها حقا. فما كنه شعوري نحوها؟!.. وإذا عاشرت زوجة في يوم من الأيام فهل سوف أبادلها حلو الشعور أم يكون الشأن معها على ما حييته مع أمي؟. بسبب من نفوري العام واللاإرادي هذا تناولتني ظنون المجتمع وألسنة أهله الناقدة أبدا بالجمود والكبر، ولو قُيّض لأحدهم أن يطلع على حقيقة نفسي إذن لأشفق عليّ شديد الإشفاق! لقد ظل محور حياتي يتراوح بين مشاعر البؤس والشجو[2]، وكثيرا ما كنت أصاب بالخمول والإرهاق بلا أدنى عيب جسدي واضح، وفضلا عن ذلك كانت نفسي تجنح دوما إلى العزلة والوحدة فلم أحظَ يوما بصديق حقيقي على رغم ما كانت

1 أمسهم به رحما: ألصقهم قرابة.

2 الشجو: الهم والحزن.

تهفو إليه جوانحي من رباط عاطفي واجتماعي وثيق. لقد عانيت على إثر كل ذلك ألما موجعا أظنه سوف يرافقني إلى القبر، إنه ليس كأي ألم، كأنه روح الألم، ومادته الأولى، ومصله وخلاصته، لا أستطيع له وصفا دقيقا! إنه يأكل الكبد. ترى ما كُنهه على وجه التحقيق؟!..

أقول مرة أخرى -غير مغالٍ- إنني لا أصلح للحب، بل الحق أنّي لم أصلح لشيء في هذه الحياة قطّ، ولولا خوفي من عذاب المنتحر غِبّ البعث[1] لما ألوْت جهدا ولما ادخرت للانتحار سبيلا! أجل لطالما كنتُ مؤمنا بالله إيمانا عميقا متأصلا في جذور النفس مأتاه جبلة تربيتي على رغم ما كان ينتابه من عذابات الشك والوساوس بين الحين والحين -ومؤمنا بملائكته وكتبه وأنبيائه ورسله، وبالقدر والبعث والنشور والحساب. ومالي ألا أؤمن بالبعث والحياة الآخرة وأنا أروم من الدنيا خلاصا؟!.. ومالي ألا أؤمن بالحساب وقد أذاقتني الدنيا على يد أبنائها ضروبا من العذاب وصروفا من الأذى النفسي، فكيف السبيل إلى شكم سوءاتهم، والقصاص منهم بدونه -أي الحساب- وكيف أهنأ بعيش أعلم أن مآله صفرا في صفر وهباء في هباء، وأن الحقوق تضيع فيه دونما رادع؟!.. وليس ذلك فحسب، فكثيرا ما أوجعتني الحياة وأعنتتني ما يشق عليّ[2]، وكثيرا ما أعاقتني مخرجة لي

1 غِبّ البعث: عاقبته، بعده.

[2] أعنته: كلفه.

لسانها الذرب[1] في سخرية وأنا أحاول أن أقطع شعابها أو أخوض في عبابها، ولم يكن لي من مأرب غير أنّي كنت أريد أن أعيش، أعيش وحسب، ولم أرد شيئا غير تلبية إلحاح نفسيّ حادّ كان يسوقني سوقا إلى استشراف رحيق زهرة الحياة وحسبي ذلك وكفى، فهل كان في مقدوري -أنا الكائن الهشّ الضّعيف- أن أناوئ هذه الحياة الهاصرة للقلب عداء بعداء[2]؟!.. لماذا يخلق الله أمثالي في هذا العالم؟!.. ولماذا عانيت ذلك كله؟!.. الحق أني لا أعلم لماذا على وجه التحقيق، وربما يرجع ذلك إلى أحداث حفرت عميقا في النفس وأنا ما زلت طفلا في المهد، أو وأنا أدبُّ على أربع، أو ربما يرجع إلى نهرة من ناهر في مجتمع من مجتمعات الناس في يوم من أيام عمري المنسلخة أودت بي إلى ما أنا عليه، أو إلى سقطة سقطتها على رأسي، أو إلى ضربة عليه من طالب عابث في عهد المدرسة، أو إلى سابقة نالت بطن أمي وأنا في غياهب رحمها! كلها أسباب محتملة، وربما كان السبب فعلا توليفة من هذا وذاك. وبرغم كل ذلك أجد في نفسي تصميما متجددا على ملاطفة الأمل ومداعبته ومداراته مرارا شأن السكير الذي لا يتوب، هو يدمن الخمر وأنا أدمن الكواذب من الأحلام، تلك الأحلام التي كان مرد سوادها ما كان يطرأ على دنياي بين الفينة والفينة من جرعات مخدرة من لقاحات السعادة: منها أن أعرف لي هواية جديدة تستأثر بيومي، أو أن أقبل على

---

[1] السليط

[2] ناوأ الشخص: عاداه.

تسلية برئية تزجي وقتي، أو أن يستجد جديد يربطني بمخلوق من مخلوقات دنياي، ومن ذلك أن حادثا أخيرا -يعد غريبا في ذاته عاديا إذا قيس إلى عجائب هذه الدنيا- أمدني بدفقات ساخرة من الأمل وومضات عابثة من الرجاء تخللت في ظلمة صدري كما يتخلل نور الشمس في سُدفة الفجر!

لقد شرعت الآن بالكتابة وهذا ما بدأت يداي بخطه، وليس كالكتابة معبر عما يختلج في النفوس، هذه الوسيلة الساحرة للتواصل البشري الآني والغابر، والتي تتجلى برموز وعلائم اطلع إنسان اليوم بواسطتها على خفايا حياة الإنسان الحجري، ودوّن أحداثا تحكى، وتراثا يُدْرس، وقصصا تروى، وغيّر وجه التاريخ حينما رفع جملة من السافلين إلى مناط السماك الأعلى، وكشف عن مطاوي النفس البشرية كشفا مريعا، غير أنني لا أريد بالكتابة شيئا من هذا أو ذاك، بل ولا أروم أن يطلع أحد من الناس على حقيقة ذاتي فلم أكن يوما أحبذ ذلك خجلا وخزيا، بل إنني كثيرا ما كنت أنفر منه شديد النفور، ولم أزل حتى الساعة وأنا أبدأ بكتابة هذه الكلمات أشكُّ في قدرتي على الإفصاح والبيان والتعبير! وهأنذا حائر متردد في شأن كتابتي، فهل سأجيد الصياغة يا تُرى أم سأقيء أفكارا لم أهضمها؟!.. لقد مارست الكتابة ممارسة متصلة طوال عمري من عهد المدرسة وحتى منتهى الدراسة، بل وفيما بعد ذلك، فلماذا هذا التردد والخوف؟!.. وما الكتابة في حقيقتها حقا؟!.. وهل كنا بدونها سنعرف سقراط وتضحيته، وسبينوزا

ومعاناته، وأوريليوس وتأملاته، وهسه وخرافيّاته؟!.. هي ليست إذن نشاطا بشريا محضا، بل هي من أفانين الحياة المجسدة للخيال الممتع، والتي وهبت لفئام[1] خاص من الآدميين، يتصل بصورة مجهولة بملاك أدبي روحه هائم في عليائه، وليس ثمّة علاقة تربط هذا الفن بالتاريخ ولا بالجغرافيا الأرضية إلا قليلا فيما يتصل بحقب تاريخية من تقدم الإنسان وتطوره أو تراجعه وانحطاطه، وما عاصره في زمنه من صروف وغِيَر، وأحداث اجتماعية ونفسية وسياسية واقتصادية، فضلا عما يرتبط بتعلم الفرد وما يرتبط بالأسرة والمجتمع والبيئة وأنشطة الطفولة، فهل سيكون لتجربتي الإنسانية الرتيبة المريضة في الحياة ومنعطفاتها وأوديتها المظلمة - التي لم أخرج منها قط- تأثير فيما سأكتب؟!.. وهل يكون التعبير بالقلم شاقا مثل التعبير باللسان أم أنه أشق وأصعب؟!.. وفي حين يرى سارتر الكتابة نوعا من الالتزام والمسؤولية فهل سوف أقوى على شكل من أشكال المسؤولية أنا الذي لم أحمل مسؤولية في حياتي ولم أقوَ على التزام واحد؟!...

لست أدري مالي لا أوطّئ كلامي ولا أجر قلمي على خلاف ما شرعت بكتابته، وما شأني أساسا وشأن التعريف بالكتابة، ولكن الذي يجول في القلب والخاطر يتسربل أديم اللسان، ولطالما كان القلب دواة[2] لشباة

[1] فئام من الناس: جماعة منهم.

[2] دَواة القلم: المحبرة، وهي وعاة به حبر.

القلم[1] وهأنذا أرد شباة قلمي إلى قلبي لأشحذها بحبر من الهموم والآلام كيْما أخط أحداثا تصف حياة إنسان معذب يسير بين البشر، على أنني لا أريد أن أطيل الوصف ولا أن أسهب في ذكر أحاسيس يملها على الخاطر واقعي الراهن المحتوم، ويومي المعاش إجبارا، وإنما أترك للقراء حرية النظر في سير حياتي الآخذ بالأفول، وليتعظوا منه إن شاؤوا، وليبكوا مواسين، أو ليضحكوا ساخرين، أو ليمروا عليه مرور الكرام.

[1] شَبَاةُ الشيء: حده، طرفه.

2

ولدت قبل نحو ثلاثين عاما، وبالطول العهد بذلك اليوم! وهأنذا أحكم بالسجن لثلاثين عاما أخرى جزاء جريمة اقترفتها بوازع من الألم المضض، وعلى ذلك فإن حياتي ضاعت بين شطرين متساويين أحدهما داخل تلافيف نفسي الخائرة والآخر خلف ظلمة القضبان فأنا لا أفتأ أتردد من ظلمة إلى ظلمة، ولا أفتأ أعيش حياة ضائعة في جملتها. ومرت أيام عمري ولياليه على وتيرة واحدة سيماها انعدام الأيد[1]، ومحورها العجز الكلي، ولكنني رغم الأسى واليأس المتأصل في جذور النفس لم أعدم تأسيا، فقد مر بي أخيرا روح ملائكي حائر وأطاف بي طائف من عبيره، ولا علم لي بسبب ما جاد به عليّ من طيب الأثير. فهل لم يجد منزلا ومستقرا إلاي بعد كل هذا العمر الطويل؟ وماذا يريد من مخلوق ضعيف مثلي أوردته الدنيا سيئ الموارد؟ أجاء ليأتي على ما بقي مني ويدرس آخر أثر من آثاري، أم جاء بشيرا نذيرا بتجدد موات القلب وليغرس زهرة أمل يانعة في مهمهِ قلبي القفر[2]؟!.. ولكن مهما يكن من واقعية مأتاه إلا أنه تأخر واأسفاه! فما جدوى أن تسوق الريح السحب المنهلة في هزيز لا ينقطع إلى أرض أصابها

[1] الأيد: القوة.

[2] المَهْمَهُ القَفْر: المفازة التي لا ماء فيها.

الجدب؟ وما جدوى المواساة بعد أن غار الجرح حتى بلغ سويداء القلب؟!.. وهل سيكون ثمة فرق بين أن أهمل مجيئه أو أن أتشبث به تشبث المقرور بأشعة الشمس؟!.. ولكن مهلا هل جاء فعلا أم أنّني على شفا الجنون؟!..

أقول إنني ولدت قبل نحو ثلاثين عاما، في ليلة من ليالي الشتاء الطويلة لا أذكر منها شيئا بطبيعة الحال إلا ما كانت أمي تخبرني به مما صاحب ولادتي من عسر وألم تبعه فرح وسرور سببته ولكن لم أشارك به إلا ببكاء غابت ذكراه في طيات المجهول! وكان مبعثي إلى الدنيا في حي متواضع من أرباض[1] مدينة عمّان، ينتهي إليه شارع مغلق تنبسط بعده أرض مفروشة بالحصباء، إلّا أن أطرافها معشوشبة، وتقوم في جنباتها أشجار الحور والكينا والتوت والزنزلخت، وتسترسل على جدار من جدرانها المتهدمة في الناحية الغربية ياسمينة معْرشة تعطر الأجواء في المساءات الكئيبة بروائح فواحة تبعث الحزن في القلب، ثم تقوم البيوت القديمة بعدها كأمثال المكعبات على سفح جبلي ممهد تشقه درجات طويلة متاهلكة بفعل عبث الزمن تتخذ شكل سلم توصل بين البيوت والأزقة، وكان بيتنا في مبتدئ حياتي يتموضع في يسار أول زقاق من أزقة الدرج، بعد دكان بدّال وثلاثة بيوت، يتألف من دور واحد، يضم دهليزا صغيرا يتفرع منه على يسار الداخل بيت الخلاء فالمطبخ، وعلى يمينه غرفة المعيشة تفضي من داخلها

[1] الأرباض: الضواحي.

إلى غرفة النوم، فيما ينتهي الدهليز إلى منظرة[1] صغيرة متواضعة لا تشتمل إلا على بضع كنبات وخزانة تضم أواني زجاجية. وبرغم تواضع البيت - كشأن الحي كله- وعبث الأيام بجدرانه وأبوابه ونوافذه وتوابعه، إلا أنه كان أثيرا في نفسي ولم يزل حتى الساعة، وإنّني إذ ألتمس اللحظة طريقا في الذكريات صوب عهود طفولتي وصباي ينتابني حزن دفين مجهول البواعث رغما عما عانيته في تلك الأيام، وأحنُّ حنين الشيخ إلى عهود صباه، وأشتاق شوق المغترب إلى تربة أرضه، وتذوب النفس حسرة على ذيّاك الزمان الضائع وعلى أيام من طفولتي لم تُعطَ حقها من العيش -تلك الأيام التي لا أملك عن تفاصيلها الآن إلا ذكريات متفرقة تقادم عليها العهد- وينصهر القلب على حالي الراهنة المتأتية عن ظروف نشأتي فيه، وإني أعتقد أن القاسم المشترك بين أحزان البشرية منذ أول إنسان في التاريخ كان شطره الأعظم في الحنين إلى الماضي. والحق أنني لم أعِ على نفسي في تلك الأويقات ولا على الدنيا التي كانت تكتنفني فيها اكتناف الهواء المحيط إلا بعد عمر الثالثة على وجه التقريب ما يعني أن ثلاث سنوات لم أكن فيها ذا كينونة وإحساس ووجود فعلي أضيفت إلى عمري زورا، وأثّرت -فيما أثرت فيه- في سن دخولي المدرسة، وسن التحاقي بالجامعة من بعد وتخرجي فيها، وفي أحداث أخرى مشابهة دون اعتبار للنضج النفسي، وربما كانت تلك السنوات الثلاث أسعد سنوات عمري، ذلك أن الألم غاب عنها

1 المنظرة: غرفة تُعدّ لاستقبال الأضياف.

أو لعلني أُنسيته كما أُنسيت بكاء باكورة النشأة. ولم أجد حولي في دنياي عندما وعيت عليها -ويا ليتني لم أعِ- إلا أما مسكينة ضامرة الجسد والنفس، تفرَقُ علينا من كل سانح أو بارح[1]، ومن هوام[2] الأرض وطيور السماء، ما ظهر منها وما بطن، بيد أنّها لم تكن تني تأخذنا بالحزم والجد في ابتغاء تقويم ما اعوج عندنا من السلوك، لذلك كثيرا ما عنفتنا بجهل للعواقب، تعنيفا قاسيا خلف في النفس رواسب لا تزول، فنشأتُ منطويا سريع الانفعال والبكاء شديد الحساسية، بل لقد نظرت غير مرة إلى صحتي العقلية نظرة مشككة ناقدة. فهل يمكن أن يؤدي إنسان له كينونته الخاصة المنفصلة عني دورا في وظائف الدماغ بأفعال أراد منها صالحي فيما يزعم؟!.. لا يوجد شيء في هذه الدنيا أحق ببغض الإنسان من الجهل!.. ولكن بين نعيم الجهل وعذاب الوعي خيط رفيع، فمتى نفهم تناقض هذه الحياة؟!..

لقد كانت أمي تبدو عليلة، بوجهها المصفر وشعرها القطط[3] المجموع خلف رأسها على هيئة قرص، وكانت كذلك سريعة الانفعال يشوب ردود فعلها خوف ظاهر ملازم إلى حد أنّني صرت أتلطف معها في أقل الأمور التي أطلبها منها أو أسألها إياها خشية أن أروّعها، فضلا عن خوفها من الناس

[1] السانح: الذاهب يمينا، والبارح: الذاهب يسارا.

[2] دواب الأرض مثل الحيات وما شابهها.

[3] شعر قَطَطٌ: قصير جعْدٌ.

ومن حديثهم وقيلهم وقالهم. ومرة سألتها عن سبب خوفها ذاك فأجابتني بأنها كانت تعنف في صغرها من أخيها وأبيها كثيرا، فلم أملك إلا أن شعرت تجاه البشرية بالرثاء. لقد كانت كائنا هشا حقا، ولم يكن يعنيها شيء من أمور دنياي بقدر ما كانت تعنيه دراستي لها، وسبب ذلك في غالب الظن أنّها لم تنل حظا كافيا من التعليم في حين نالت صويحباتها من أزمنة الدراسة شهاداتهن ومنهن من نلن الشهادات العليا، فمكنهن ذلك من العمل في مجالات شتى بشكل وفّر لهن دخلا شهريا لا يتمنين معه ولا تهفو أنفسهنّ إلى شيء، أما هي -أمي- فكانت محرومة أقل ما كانت ترغب فيه، ولم تكن ترغب في شيء نفيس يعنيها شخصيا مما يعني غالب النسوة، كالحلي والثياب والمأكل والمشرب، وإنما كانت تعنى بأثاث البيت ورياشه[1]، وبمستلزمات الغسيل والطبخ وسائر الأمور البيتية، فضلا عن حوائج بعلها، والتي كان ينفعل لها إذا مسّتها يد التقصير؛ فقد كان إنسانا غضوبا سيماه الجلافة والقسوة في كل أحواله وأفعاله، خصوصا في نهرنا وضربنا أنا وأخي وأمي، وقد كان زوجا حادّا مع الأخيرة على رغم طاعتها العمياء له، ولم أسمعها يوما ترفع صوتها في محضره بل لم أعتقد أن في مقدورها أن ترد له أمرا، ومجمل حالها معه أنها كانت كما الدمى المتحركة في يد المسرحي، والعبد في يد سيده، تؤمر فتطيع، وتخطئ فتضرب ضربا مبرحا. كانت تفيق من نومها على أذان الفجر السابح فوق الحي في هدوء تام لا

[1] الرِّيَاشُ: الأثاث.

تسمع معه من غيره نأمة ولا حركة، فتجهز طَشْت[1] ماء ومِنْشَفة ثم تعالج بعلها بالرفق واللين حتى يستفيق، فتوضئه كأنه طفل صغير، وتلبسه هندام الصلاة -وتكون قد حضرته قبل النوم- ثم تشيعه لدى الباب في ذهابه إلى المسجد، في حين ترجع لتجوس أركان البيت وتطمئن علينا في نومنا، وفمها يوسوس بتسبيح الله واستغفاره، ولا تعود إلى نومها قبل أن يرجع زوجها من الصلاة ويسبقها إليه، فعند ذاك يغمض جفناها قليلا، ثم تستيقظ مجددا مع طلائع الشمس كيْما تجهز الفطور له قبل ذهابه إلى عمله، وحال خروجه إليه كانت توقظنا من نومنا تباعا وتجهز إفطارنا بدوره، ثم تقوم على قضاء حوائجنا، وما أن تفرغ منها حتى تأخذ بشؤون البيت من تنظيف وترتيب وحياكة ونسيج وغسيل وتحضير لطعام الغداء ثم إعداد له قبل أن يرجع زوجها. هكذا كان ديدنها في سياسة البيت ورعاية شؤونه، ولم تكن البتة تخرج منه إلّا بإذن متقدم من الزوج وفي شيء من التحفظ، وما كانت تخرج لزيارة أو ترفيه أو إزجاء فراغ؛ وإنما لابتياع حاجات البيت أو قضاء وطر متعلق به ليس إلّا، وفيما عدا ذلك كانت تُحبس في البيت -ونحن معها بطبيعة الحال- معظم الوقت، ولا يُسمح لنا إلا بزيارة جدتي لأمي مرة واحدة في الشهر، وأحيانا كان يتنازل بمبيتنا لليلة واحدة فحسب في المناسبات والأعياد كانت تعد أسعد ليالي

[1] إناء مستدير من النحاس وما شابهه يستخدم للغسيل ونحوه.

حياتي، وكنا -إذا طلب من أمي أن تنام عند أمها- نفرح فرحا لا مزيد عليه، ونأوي إلى ظل ظليل من حنان الجدة وحبها وعطفها ورعايتها، ونأخذ أنا وأخي بألوان اللعب نمارسها مع أولاد الخؤولة بغير حدود وحتى يكلّ البدن. وأذكر مرة أنّني كسرت جذع شجرة يانعة بكرة القدم فصرخت أمي في وجهي وضربتني على مرأى من جدتي وهي جالسة على كرسيها في الفناء تحت الشمس، فما كان منها إلّا أن عنفت أمي وسبتها على سوء معاملتها لنا، ونوهت مبالغة بتفاهة الشجر بل وجدران البيت بأسره ومتاعه جميعا، وبأنها لا تأبه لو تهدم على رأس أصحابه في سبيل لعبة تسعدنا، ثم نادتني وحضنتي تحت ذراعها وقبلت جميع أنحاء وجهي وأنا أبكي في حضنها فيما تلعن أمي وأجدادها من الموتى المجهولين، ولم يزل هذا الموقف منها يطوف بعقلي ويسيطر على جوارحي بخيوط من الحزن حتى بعد مرور نحو عشرين سنة على وفاتها. تلك أيام تقادم عليها الزمن، وطوتها سحب الأيام، وجر النسيان ذيوله على معظم ذكرياتها حتى أنسيتها، وكم أودُّ لو ترجع ساعة من ساعتها أمرح وأسرح فيها بلا أدنى هم واحد! ولكن هب الأيام رجعت فهل أرجع معها إلى نفسي القديمة؟!.. هل ترجع معها جدتي وأحظى بحنو منها وعطف؟!.. هل يرجع أخي على حال مغايرة لما عشناه؟!.. لقد كان أخي قريبا مني بجسده بعيدا عني بعواطفه كرد فعلي على الفارق العمري بيني وبينه، وقد أقبل على حياتي وأنا على أبواب المدرسة أخ آخر غير

شقيق يصغرني بعام واحد تصرمت[1] بيني وبينه الأسباب وتقطعت الأواصر[2] في مدارج السنين، ولم أعد أذكر الآن عنه إلا أحداثَ ولادته ونشأته الأولى والتي عاصرتها بقدر قليل من الوعي، ولا أعلم إن كانت ذاكرتي ستخونني في ذكر بعض الأحداث، وما أذكره بالفعل أنه جاء في يوم قارس شديد البرد من أيام شهر فبراير كانت ندف الثلج فيه تفترش أسطح المنازل، وأسقف السيارات، وجوانب الدرجات، وعتبات الأبواب ورخامات النوافذ، وتتهادى في خمول في الفراغ كأنها فراشات قطبية. وبرغم تقززي من هيئة الصغير التي خالفت توقعاتي عن هيئة الأطفال حديثي الولادة، إلّا أنّني فرحت فرحا شديدا بمقدمه إلى دنيانا، وانتابت الغيرة فرحي في أحايين كثيرة لما رأيت من عطف أمي وحنانها عليه، ثم لم تلبث غيرتي تلك أن استحالت حزنا وخوفا عندما مرض -بعد مرور شهر على مولده- بالحمى، في تلك الأيام لم أعد أرى أمي إلا باكية أو محزونة، وكانت تتردد على المشفى الذي رقد الصغير فيه لأكثر من أسبوع ولا تعود منه إلا منتحبة حتى ظننت أن الموت سيكون نهايته المحتومة، ولكنّ الأقدار تلطفت بنا -بأمي تحديدا- فأبلَّ[3] الصغير من مرضه ورجع ماء الحياة ينتشر في وجهه، وعاد من ثم ليملأ فضاء البيت بصراخه وبكائه من سريره

[1] تصرمت: انقطعت.

[2] الأواصر: مفردها آصرة وهي صلة القرابة.

3 أَبَلَّ من المرض: شفي منه.

الخشبي المسيج، وبحبوه الدائم غير الملحوظ في أركان المنزل كأنه كائن أليف، وبمرور الأيام تغير منظره واستحال شكله إلى لطافة ودعة، وصار أشبه شيء بصغار الأرانب في نأمته وحركته، وبكرور الأشهر تعلم الجلوس على أليتيه، ثم الحبو فالمشي. هذا كل ما أذكره من سيرته فضلا عن أحداث أخرى ليست على جانب كبير من الأهميّة.

أما بخصوص أبي فقد أُخبرتُ بادئ الأمر بأنه يقيم في قُطْر ناء من أقطار العالم، ولم أطلع على علّة غيابه الحقيقية إلا بعدما بلغت إثنتا عشرة سنة على وجه التقريب، وكان مؤاد تلك الحقيقة أن الموت اختطفه أثناء حبل أمي بي اختطاف الجارح الطير السادر في الهواء، جراء حادث سير، ولقد صاحب الخبر صدمة نفسية أليمة زلزلتني زلزالا، وطفقت بعدها أرى الآباء بغدوهم ورواحهم بأبنائهم من وإلى المدرسة بعين اليتيم المحروم وأنا أجترُّ حرماني ذاك في وحدة وعزلة. ولحكايتي مع المدرسة شأن آخر، لقد بدأت أعي على ذكرها بأذني من غير أن يحفِل بها عقلي حتى كان يوما صحبتني فيه أمي وإحدى صويحباتها من الجارات وابنتها -التي كانت تربا لي- إلى سوق شلنر الشعبي في شرق عمّان، وهو سوق أشبه بشارع ضيق طويل ضارب في المجهول، تتموضع على جانبيه دكاكين الباعة متراصة متنوعة يقفو بعضها بعضا، تبدأ بباعة دجاج النتافات الحي وتنتهي بباعة الألبسة والأقمشة والسجاجيد، فيما يعبق هواء السوق

الفاسد بروائح مريجة[1] من ذرات البهار والأعشاب العطرية وريش الدجاج والطعام المقلي وما يسيل في بعض أركانه من عادم المياه، على حين تكتظ صعداته بالسابلة وعربات اليد، ولا يكاد السائر فيه يسمع حديث مجاوره، ومرجع ذلك إلى ما يتجاوب في أكنافه من نداءات الباعة. الحقيقة أنني كنت خائفا جدا وأنا أشقُّ السوق، إذ دبت طبيعته في نفسي رهبة ووحشة، كما طالعتني فيه وجوه عدة متناقضة في الشكل والهيئة والهندام -أنا الذي لم أعرف في دنياي من الخلق إلا ما تشتمل عليه جدران بيتنا- فضلا عما استرجعت من كلام أمي وتحذيرها إياي من النشالين واللصوص -الذين يخطفون الأطفال ويقتلعون أحشاءهم ويفقؤون عيونهم- فاشتد خوفي واضطرابي، ولم أرخ يدي من يدها البتة حتى خلت أنها التصقت بها من شدة ما تعرقت بلزوجة الخوف، وقد طفنا على تلك الحال بين الدكاكين المختلفة لنحو ساعة زمانية ابتاعت لي أمي خلالها زيا مدرسيا وحقيبة للظهر وقرطاسية وما شابه ذلك من اللوازم المدرسية. لقد سررت بما جلبت لي حينها سرورا لا مزيد عليه، وظننته للعب والتسلية بادئ الأمر إلّا أن الصدمة دهمتني عندما أبنا إلى البيت حيث تلقت أمي نهرة شديدة من زوجها لغلاء ثمن اللوازم المدرسية من ناحية، ولتأخرها في الرجوع إلى البيت من ناحية أخرى، أما أنا فلم أكن ذا

[1] مختلطة مضطربة.

حظ أفضل؛ إذ صفعني صفعة مدوية ارتطم جانب رأسي على إثرها بإطار باب الصالة، وقد حز الألم حافة أذني ففررت إلى غرفتي أبكي بكاء شديدا موليا حاجاتي الجديدة ظهري، ولم أعلم بما آلت إليه تلك الحاجات إلّا بعد نحو أسبوع، كنت حينها نائما في سريري هادئا مطمئنا خِلو البال من حوادث يومي الآتية، وبدأت أستفيق على تهاويم أصوات كموجات الأثير، ثم لم أشعر إلّا ويدا قوية تجذبني جذبا لا قبل لي به فجفلت مذعورا من وقعها على معصمي، ولم أدر ما الخطب بادئ الأمر إلا أنني حين استجمعت شتات نفسي المذعورة الناعسة، وانتهت يدي من مسح أثر النوم عن وجهي، وجدتها يد زوج أمي، فازددت ذعرا على ذعر وأنا أطالع هيئته الفظة، وارتعدت فرائصي كحالي حين رؤية جحيم غضبه دوما، وصرخ في وجهي طالبا إيّاي أن أبكر بأداء صلاة الصبح، وأن أغسل وجهي وأرتدي ثيابي استعدادا للمدرسة، وكان وقع الطلب هذا -طلب الاستعداد للمدرسة- عليّ غريبا رغم ما وصلني عنها من أنباء لم أبالها خلال الأسبوع المنصرم، وكانت أمي تقف خلف زوجها عاجزة وهي تنظر إليّ بطرف مخضل كسير.

الحقيقة أنّني لم أكن أملك أن أعارض لزوج أمي أمرا ولا أن أرفض له طلبا، حتى أخي الأكبر كان يطيع أوامره طاعة عمياء يحدوها خوف ظاهر يتمثل في ارتعاش العينين وتوتر الشفتين وخضوع الرأس وارتجاف البدن. كان الرجل خشن الهيئة في صورة شاذة، طويلا سمينا في إفراط، كث

اللحية تنتشر على صدره تخطها بضع شعرات بيض، عابس الوجه مخدد الجبين مقرون الحاجبين، في سواد عينيه حمرة مخيفة، يرتدي ثوبا متسخا قلما يبدله ويعتمر طاقية تطيف برأسه عدا الغرة، وكان لصراخه -إذا ما صرخ- جبروت لا يعلوه جبروت حتى أنّني سألت أمي يوما -وكانت تلقنني قصصا في ضرورة الخوف من الله واتقاء عقابه- هل يخاف عمي عبد القهار -وكان ذلك اسمه- الله؟ فلم يكن منها إلا أن أغربت[1] في الضحك وجعلت تستغفر الله لمقالتي، وبالرغم من فرحي لرؤية شدقيها يبسُمان بسببي إلّا أنّني رأيت بارقا من حزن دفين مر بعينيها.

* * *

وتوضأت على عجل لأداء صلاة الصبح، وصليتها بجسد صغير حاضر وقلب قلق هائم، ثم دعتني أمي لأصيب طعام الإفطار المكون على جاري العادة من البيض والزعتر والجبن والزيتون والحلاوة الطحينية والشاي الساخن؛ فاتجهت صوب الصالة -موضع طعامنا الدائم- وجلست بحذاء أمي وأخي -خالد- وبإزاء زوج أمي، وراحت يدا الأخير تنهشان الطعام، ولم أكن أجرؤ أن أمد يدي إلى الأطباق في حضوره إلّا على استحياء، ذلك أنه كثيرا ما كان ينْهري وأخي متخذا من تسرعنا في الأكل أو إفراطنا فيه أو نسياننا للبسملة ذريعة وسببا، لذلك جعلت أتناول حبة

[1] أغرب في الضحك: بالغ فيه.

زيتون وأمضغها برفق فيما تلقمني أمي شيئا مما في الأطباق حتى تبلّغتُ[1] فأخذتُ أرتشف الشاي، ثم استوتْ أمي قائمة ودلفتْ إلى غرفة نومها التي كانت تضم كذلك دولاب ملابسنا، ولم تعتّم أن نادتْ عليّ لأرتدي ثيابي، فذهبتُ وأسبلتْ عليّ -وسيل الأدعية لي ولأخي لا ينقطع- زيّ المدرسة الأزرق، وبخّت عليّ رذاذ العطر وجعلتْ تُرجّل شعري فيما أسائلها عن كنه المدرسة فتجيبني بأنها مكان جميل للتعلم واللعب وما شاكل ذلك. ولكن ألم يقل إخوة يوسف لأبيهم أن أرسله معنا يرتع ويلعب؟!.. وما انتهت من كلامها حتى دخل علينا عبد القهار عابسا مقطبا وهو يرشف الشاي بشفتيه الغليظتين، وفتح فمه عن أسنان منابتها سود يوجه لي الكلام يقول:

- يا ولد، المدرسة مكان للتعلم لا للعب كما تقول أمك؛ فأنصت لدروسك جيدا ولا تعص لمعلماتك أمرا، وإني سائلهنّ عنك في المدرسة بين الحين والحين، والويل كل الويل لك إن ذمتك إحداهنّ، أو إن بلغني أنك لم تعِ ما يلقّنُ لسائر الطلبة وبخاصة سور القرآن الكريم.

قالت أمي:

- أحمد ولد طيب يلبي ما نطلبه منه دوما ولن يكون غير ذلك مع معلماته، وسيكون أيضا مثالا للطالب المطيع والزميل الخلوق مع بقية الطلبة، أليس كذلك يا أحمد؟.

[1] تبلغ بما أمامه من الطعام: اكتفى، قنع.

وخرج حينذاك من الغرفة مصعّرا خده دون أن يلقي لكلامها بالا فما كان أصعب عليه أن ينالني شيء في محضره من التقريظ[1]، وهيأت لي أمي طعاما وشرابا طيبا ووضعتُه في حقيبة الظهر، وألبستني إياها، واحتذيت حذائي[2]، ثم ارتدت هي ملابسها بدورها وخرجتْ من الغرفة إلى باب الصالة أتبعها أنا وتهديدات زوجها لها إذا ما تأخرت، واتفق أن صادفتنا جارتنا وابنتها اللتان ذهبتا معنا إلى السوق، وكانتا تتأهبان للذهاب إلى نفس المدرسة، ولا تسل كم سرني أن أجد في غربة المدرسة المقبلة عليّ شخصا أعرفه فيها! ولم ننشب أن أخذنا سمتنا[3] نصعد درجات الحي حتى الشارع الفرعي، ومنه قادتنا أقدامنا إلى شارع المحطة العابق صباحا برائحة الخبز وقلي الفلافل، وبذهابٍ وإياب للسيارات لا ينقطع. وعبرنا من شارع المحطة إلى آخر فرعي ينتهي إلى المدرسة. لقد ألفيتها على خلاف ما رسمت صورتها في خيالي، فأمام الباب قامت حاويات قمامة مهملة، وكان بنيانها كالحا متهالكا، وسورها عال جدا كأنما أنا مقبل على سجن لا على مدرسة، فلذلك توترت قليلا، على أنّني لم أشعر برهبة جارفة حقا إلّا بعد أن ألقتْ إليّ أمي سيلا من النصائح خمّنت منها أنّها مغادرة إياي عقابيل

[1] التقريظ: المدح.

[2] احتذى حذاءه: انتعله.

[3] يقال: أخذ سَمْته: أي وجهته.

النهار[1]؛ فتشبثت بملاءتها والتوت شفتي السفلى ثم استخرطت في البكاء[2]، وجعلتْ تهوّن الأمر عليّ ولكنني لم أنته؛ فنهرتني داعية إيّاي بالفتاة، فشكمت نفسي عند ذلك قليلا على الأقل في الظاهر، ثم هوّن عليّ بعض التهوين أن انخرط أطفال آخرون معي في البكاء لأسباب غير مختلفة، لذلك جاءت المعلمات يطمئن الأطفال فيما جعلت مديرة المدرسة تربّت على رأس هذا وذاك -وكانت إمرأة قوية البنية في العقد الرابع من العمر كما تبدو، ترتدي جلبابا أخضر منمنما- فأفرخ روعي واطمأن بالي نوعا، ثم تبادر إلى الأسماع صوت جرس يقرع برنين متصل، فاصطف الأطفال على أثره تباعا بتوجيهات من المعلمات، على حين جعل أولياء الأمور يغادرون يقفو بعضهم بعضا[3]، فحذوت حذو الأطفال كما طلبت أمي وأنا لا أحول ناظريّ عنها، ولم تمض دقائق قرئت خلالها آيات من القرآن الكريم حتى كان الأهلون قد انفضوا ومنهم أمي بطبيعة الحال، فابتدرتْ المديرة المنصة وجعلت تصرخ علينا بتعليمات صارمة خفنا من وقعها جميعا، فلم نجرؤ على الحديث دونا عن النظر إلى شيء سواها، وما أن انتهت من خطابها حتى دخلنا صفوفنا متتابعين، وجلسنا في أدراج متتابعة كذلك البنات فالبنين، ودخلت المعلمة علينا ولم تأت بجديد إلّا بتوجيهات مشابهة لما سمعته في البيت وفي طابور الصباح، ثم خرجتْ لاستراحة مقدارها دقائق

[1] عقابيل الشيء: بقاياه.

[2] استخرط في البكاء: لج فيه واستغرق.

[3] يقفو بعضه بعضا: يتبع.

معدودات تفصل بين الحصص المدرسية، فلجّ الطلبة في الحديث الجانبي رغم أن المعلمة نهتنا عن ذلك جميعا، أما أنا فكنت منطويا على نفسي فلم تبدر مني كلمة واحدة حتى لزميلي الذي حاول عبثا استدراجي للحديث. ثم كان أن شعرتُ بحصر في البول، وعادت المعلمة وبدأت تلقننا شيئا من أحرف اللغة العربية وتصرّف لنا الأمثال في أشكالها وتغيرها تبعا للكلمة، واشتدّ حصر بولي فجعلت أتحلحل[1] في مكاني، ومر الوقت ثقيلا كالظل، ولم أملك نفسي فسال البول على فخذي ثم استطارت[2] عطونته في هواء الفصل المغلق حتى اشتمتها المعلمة، وسآلتنا عن الفاعل ولكن لم يجب أحد، فأمرتنا بالوقوف جميعا وجعلت تتحسس سراويلنا فيما يلي الفخذ صعودا، ولما علمت أنّني الفاعل حدجتني بنظرة حادة وشدّت على أذني وعركتها حتى خلتها اقتلعتها، فتساقطت دموعي في صمت يحدوني خجل أليم، فأخرجتني على إثرها إلى دورة المياه كيْما أغسل ثيابي، فصدعت بما أمرت وخرجت أتعثر في خجلي، ولم يرعني شيء مثلما راعني ظني بوصول أصداء حادثة اليوم إلى بعل أمي، ولما عدت من دورة المياه نهرتني المعلمة أمام الطلاب جميعا فضاعف ذلك من خجلي وألمي، وجعلتني أقف على قدم واحدة وأرفع يديّ إلى أعلى في ركن الفصل حتى نهاية الحصة، ثم أعادتني إلى موضعي منهك اليدين والساقين وخائر النفس

[1] تحلحل: تحرك من موضعه يريد الانتقال.

[2] انتشرت.

والجسد. وتتابعت بعد ذلك الحصص المختلفة من حساب ورسم وتلاوة، تخلّلتها استراحة نصف اليوم التي قضيتها وحيدا لصق حائط دورة المياه خشية أن يسخر مني أحد من الطلاب، وجعلت آكل تفاحة وأشرب عصيرا زودتني بهما أمي في الصباح، فيما أقبلت عليّ جماعة من الطلاب يصيحون ساخرين: "بال على حاله.. بال على حاله". فاعتراني شعور لم يسبق لي أن عشته من قبل.

رغم أني نأيت بجانبي عنهم إلّا أنهم لم يدعوني وشأني، وكان هذا واقع حالي مع الناس فيما تلا من سنوات!

* * *

وفي نهاية اليوم المدرسي قُرع الجرس ذاته إيذانا بانتهائه ففرحت فرحا لا مزيد عليه، وخرجت أفرّ فرارا، وقابلتُ أمي عند باب المدرسة الخارجي كما كانت وعدتني، وارتميت بين يديها وأفحمت في بكاء حار راجيا إياها أن يكون أول يوم لي في المدرسة هو آخر يوم لي فيها على السواء، فجعلتْ تهون عليّ وخاطرها حزين مكسور غير أنها نهرتني أخيرا حيال إلحاحي، وقبضتْ على يدي وعدنا ادراجنا إلى البيت يكتنفي فرح مشوب بحزن وخوف. وفي البيت لم أجد زوج أمي إذ كان ما يزال في عمله فطابت لي ألوان اللعب، حيث كان يوبخني أو يضربني إذا رآني ألعب، أو إذا أصدرت صوتا أقضه. ثم وجبت نفسي بتأثير اللعب وكل ذهني وثقل جفناي فاستسلمت للنوم ما بقي من النهار، ولما استيقظت خلت أن موعد المدرسة قد حان فداخلتني

رجفة ارتعدت لها فرائصي، ورأيت أمي وكانت تلفّ أوراق الكرنب فرجوتها أن أؤخر المدرسة ساعة أخرى، فضحكت ملء شدقيها وقالت: ((إن الوقت غروب، وإن موعد المدرسة لم يحن بعد، وإن أمامي ليلة بأكملها أستمتع بها)). ففرحت بما قالت أيّما فرح، ولم ينغص عليّ فرحي إلّا إياب زوجها من عمله حيث دعاني إليه ساعتئذٍ، وأقبلتُ عليه قلقا وجلست بين يديه، فسألني عن نهاري في المدرسة فأجبت بما كان تفصيلا، ورغم أني وطنت النفس على إخفاء الحادث المخزي إلّا أنّني لم أكن أستطيع الكذب عليه، فرماني على الأثر بنظرة نارية وقال:

- عال والله، تبكي في المدرسة كالبنات، وتبول على نفسك، ألا لعنة الله عليك.

وخفت حدة صوته قليلا ثم قال:

- وماذا تعلمت اليوم؟

ولم أحر جوابا، فاقترب مني مكررا سؤاله مشددا على مخارج الحروف:

- قل لي ماذا تعلمت؟

وظللت صامتا لم أترمرم[1]، فدوّت صفعته على رأسي شديدة مؤلمة، وهرعت أمي لوقع الصفعة راجية إيّاه أن يتركني وشأني فوجّه ملاحاته[2] إليها وهو يدقُّ على رأسها بعقلة سبابته، وما انفك عنها حتى أقبلت عليّ مؤسية[3] وحملتني إلى غرفة النوم حيث غفت عيني ليلا طويلا في أعقاب الحزن والإرهاب اللذين فتكا بي.

[1] الإرمام: السكوت. ولم يترمرم: لم يحرك فمه للكلام.

[2] الملاحاة: المنازعة والمشاتمة.

[3] مُصبّرة.

3

وتتابعت أيام المدرسة في رتابتها المعهودة حتى كان يوم الخميس من الأسبوع الأول. ابتدأنا اليوم المدرسي فيه بحصة رياضة كرة القدم فعددت ذلك نذيرا بيوم مختلف عن سوابقه من الأيام، ورغم أنّني حييٌّ خجول إلّا أنّي أقبلت على اللعب -بعد تردد قليل- بدافعية وبانشراح ساقتني إليهما رغبة في الفكاك من قبضة الضغط والتوتر التي كانت تأخذ بعنقي بين جدران الفصل، فكان ذلك أول احتكاك فعلي ملموس بيني وبين أقراني من الطلبة، ثم كان أن عدنا إلى الفصل واستظهرتُ على معلمة التلاوة آيات كريمة من القرآن الكريم كنت قد حفظتها فأثنت عليّ أشدّ الثناء فكان لذلك أيضا وقع غريب عليّ لم أشعر به قبلا تبدت آثاره في تضرُّج العارضين[1]. وتتالت الحصص حتى جاءت الاستراحة المدرسية فقابلت ابنة جارتنا فيها، وابتدرت هي الحديث معي وأخرجتني من عزلتي اليومية المتصلة، فكان يوما مدرسيا غير معهود بحق بين ما سبقه من أيام حتى نغصه عليّ سوء الحظ. حدث أن أعلمتني أمي مساء أمس أنه لن يكون باستطاعتها أن تجيء لأخذي اليوم لانهماكها في عمل منزلي كثير يتطلبه

[1] تضرّج وجهه: احمرّ. والعارض: صفحة الخد.

حضور أضياف من صواحب زوجها، وكانت أوكلت إلى جارتنا إرجاعي في نهاية اليوم، ولذلك قابلتني ابنتها في الاستراحة وحدثتني حديثا طفوليا حول رجوعنا إلى المنزل معا، ورغم يومي المدرسي المميز إلّا أن ظلا كثيفا من القلق كان يخنقني خلاله، وما قرع جرس الخروج حتى أطلقت ساقيّ للريح أبحث عن جارتنا وابنتها، بيد أنّني لم ألفها في المدرسة ولا في أكنافها كافة، وجعلت أبحث عنها جهدي ولكن دون جدوى، فوقفت خائفا مخذولا، ثم انفض جميع الطلاب فبقيت وحيدا في باحة المدرسة في ضياع مقلق غير أنّي عزمت أخيرا على الإياب إلى البيت وحدي وليكن ما يكون، وكنت قد خبرت الطريق فعدت منها والخوف ينهش صدري، ثم كان أن صادفني جمع من الطلاب من نفس مدرستي ولكنهم أكبر مني سنا، وما أن رأوني حتى تمثلتُ لهم مادة للتسلية والفكاهة، فأحاطوا بي جميعا إحاطة السوار بالمعصم، وجعلوا يلمزونني[1] وينعتونني بأسماء أنثوية، وكانت أمي قد أهدتني ساعة رخيصة هي في مقياس الطفولة نفيسة الثمن، فضربوني وجدلوني[2] وتألبوا عليّ[3] ثم انتزعوها مني، فأسقط في يدي ولم أستطع عن نفسي ذودا[4]، ثم ارعووا عنّي[5] فمضيت إلى حال سبيلي منكسرا خائبا

[1] اللمز: الإشارة إلى العيوب.

[2] ضربه فجدله: رماه أرضا.

[3] اجتمعوا واحتشدوا

[4] ذاد عن الشيء: دافع عنه.

[5] ارعوى: كفّ، امتنع.

أتجرع الغصص من توالي أحداث -شهدتها في أسبوع- كفيلة بأن تأز كياني أزا عنيفا لعمر كامل. ولست أدري كيف بلغت البيت، وابتدرتني أمي حال وصولي بعناق طويل وهي تبكي لتأخري وتتساءل عن سببه، وأنا أذرف في حضنها دمعا سخينا، وأخبرتني أن جارتنا بحثت عني في كل المدرسة ولكنها لم تقفْ لي على أثر فأقسمت لها بكل محرجة من الأيمان بأنها كاذبة، واسترسلتُ منخرطا في بكاء حاد أفضى إلى صداع أليم في الرأس، ولم أطلعها على ما جرى لي من الأولاد خشية أن يعلم زوجها بأمر الساعة فيعنفي تعنيفا قاسيا، أو أن تذهب هي إلى المدرسة وتخبر المديرة فتعاقب الطلاب فينتقموا مني بدورهم، وطويت صدري على ما برحني من الشجو والهم والشعور بالعجز، وعضضت على شفتي قهرا حتى أدميتها.

وبعد أن تناولنا عشاءنا في مساء ذاك اليوم أمرني زوج أمي بأن أحضر القرآن الكريم فصدعت بأمره وأنا من القلق في غاية، وانصرفت عما بين يديّ من اللعب. ولما جلبت القرآن تناوله مني في نرفزة ظاهرة وفتحه على قصار السور، وقال لي بعد أن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم:

- اتلُ عليّ من قوله تعالى: "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون".

ازدردت ريقي في خوف بيّن ولم أحر جوابا. وتساءلت في نفسي في اللحظة الآتية كيف يستعيذ هذا من الشيطان؟!.. ولما رأى ما رأى من

جمودي وصمتي أكبر الأمر[1]، وحدجني بنظرة من نظراته النارية سقط لها حبل ركبتيّ، وقال:

- ألم تسمع يا صنم يا بليد، لم لا ترد؟

فقلت وقلبي يذهب شَعاعا:

- لم نأخذ هذه السورة بعد يا عماه.

فضرب كفيه بركبتيه متعجبا، وقال:

- الولد لم يأخذ سورة (الكافرون)! اسمعوا يا عالم! وهل من الضروري أن تأخذ سورة قصيرة كهذه حتى تحفظها، ومتى كان تحفيظ القرآن وحفظ سوره قاصرا على التعليم المدرسي، خصوصا سوره القصيرة؟

وظللت صامتا تلوح في عينيّ نظرة قلقة، وانجاب[2] في فمي طعم مر هو بطعم النحاس أشبه، وحين أيقن من صمتي وعدم مقدرتي على استظهار السورة رفسني بقدمه رفسة أطاحت بي بعيدا عنه وهو يصرخ:

- امشِ من وجهي.

وفررت وصوته يلاحقني:

- ((قطيعة اللي تقطعك وتقطع أمك)).

---

[1] عده كبيرا.

[2] انتشر.

ورغم ما قابلني به من عبوس إلا أنني لمحت -حال فراري من وجهه- بارقة بسمة مرت بشفتيه ثم تلاشت كأنها شهاب غاب وراء كسف سود من السحب. الحق أنه لم يكن يبالي بشيء من سيئ صفاتي كالضعف والعجز والخجل، بل كان يسعد بها أيّما سعادة، ولم يكن حرصه على أن أحفظ القرآن الكريم أو غيره مما يملى عليّ في المدرسة من أساسيات العلوم بدافع من الحرص، فقد كان يأنف[1] توفقي وذكائي وحضور بديهتي، بل كان منبع حرصه بركان من الحقد والحسد والغل والكراهية والغيظ والجبروت والقهر والاستبداد.

* * *

واعتدت تحضير جدول الدروس قبل أن آوي إلى فراشي كل ليلة، وفي ذاك اليوم أقبلتُ على أمي لتساعدني في شأني هذا، فقالت مبتسمة: إن يوم غد الجمعة.

فقلت: وماذا في ذلك؟

قالت:

- إنه يوم عطلة سيتبعه يوم عطلة آخر.

فقلت وأنا من الفرح في غاية:

- أأنام في الغد حتى وقت متأخر؟

[1] يأنف: يكره.

فضحكت وقالت:

- إن شاء الله.

فذهبت إلى فراشي مسرورا وجعلت أتقلب فيه في هناء ولذة، ولا أدري كيف أخذت السِنة بمعاقد جفنيّ إلّا أنّني استقظيت باكرا فداخلني مرار لأزوف ميعاد المدرسة حتى ذكرت حديث أمي عن العطلة فانداح في صدري الحبور، وغادرت الفراش وثبا وانهمكت في اللعب حتى أتاني صراخ الشيخ عبد القهار يأمرني بالاستعداد لأداة صلاة الجمعة.

4

وأقبلت أيام الامتحانات المدرسية فكانت أياما عصيبة بحق، وما أنس لا أنسى لياليها التي كانت تطول حتى ترهق البدن ويكل منها العقل، والتي صُفعت وعركت أذني فيها مرات ذوات عدد لإخفاقي في استحضار معلومة أو إجابة عن سؤال. ورغم أنّني أبليت في الامتحانات بلاءً حسنا -وتشهد بذلك أوراقي- إلّا أنّ ذلك كان مهيجا عصبيا للشيخ عبد القهار، فجعل ينهال عليّ ضربا متواصلا وقد اتخذ من تأخري في إتقان التلاوة وحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبويّة -على صغر سني- عذرا وذريعة، وكال لي من ثم ألوانا من الإهانة والتحقير، من ذلك أنّني عدت يوما فرحا مسرورا إلى البيت مع أمي وأنا أحمل ورقة اختبار الحساب تزين جانبها العلوي الأيمن دائرة تضم درجة عالية، ودلفتُ إلى البيت يعلوني فرح ظاهر فطالعنا الشيخ حال دخولي بوجه متسائل مستفسر، فأطلعته أمي على نتيجتي مستبشرة ضاحكة إلّا أنّ ردّ فعله هالها، فقد قرن ما بين حاجبيه في عبوس وتجهم وصرخ فيها أن تصمت، ثم أمرني أن أدنو منه ففعلت في خوف وارتباك، فتناول من يدي ورقة الاختبار وأمرّ نظره عليها في اشمئزاز كأنما هو يطالع فيها أخبارا دامية، ثم قال لي في حدّة:

- لن ينفعك الحساب ولا غيره إن لم تكن على دراية بعلوم القرآن، وإنّي لا أظنك تفقه فيها شيئا فضلا عن حفظ بعض من السور الكريمة.

فقالت أمي مدافعة:

- ولكنه يحفظ قصار السور، ولا تنس أنه ما زال في الصف الأول فعن أي علوم قرآن تتحدث.

فنهرها نهرة عنيفة طالت لدقائق تخللها ترديده بفضل القرآن وأهمية تعلمه، ثم أمرها أن تحضّر الشاي فصدعت بانكسار، وخرجت تجر أذناب الذل، وبقيت أنا وحدي وجها مع الوجه الفظ، وطلبني أن أتلو عليه شيئا محددا من القرآن -كنت حفظته قبلا- فتلوت عليه بلا خطأ، فنظر إليّ غضبان وقد اربدّت سَحنته[1]، وصرخ في وجهي لأنني لم أدغم في موضع الإدغام، ولم أقلب في موضع الإقلاب، فقلت له إنني لا أعلم ما الإدغام ولا ما الإقلاب فقبض على شعري وضرب رأسي بالأرض، فدارت بي الدنيا على الأثر، ثم وضع جانب رأسي على الأرض وداس الجانب الآخر بقدمه فجعلت أرسل دموعي في صمت وذعر، وعند ذاك تركني ثم انشغل عني بشاشة التلفاز، فقمت أريد الخروج ولكنه صرخ بي أن أمسك القرآن واحفظ بواكير سورة البقرة، فأمسكته وقبلته مبللا أديم غلافه بدموعي، وما شرعت في حفظ الآية الأولى حتى قام منتصبا وأقبل علي وأخذ القرآن من يدي ووضعه على الوسادة، ثم نظر في عينيّ شزرا وهو يجلس قبالتي،

1 اربدَّت: تغيرت. والسَّحنة: الهيئة، اللون.

وطلبني أن أقعي أمامه إقعاء الكلب ثم أمرني أمرا إدّا[1] لا زلت أشمئز منه حتى اليوم، ويندى جبيني له ذلا وقهرا، أمرني أن أمرّ بلساني فيما بين أصابع قدمه، ولما لم أكن أملك المعارضة فضلا عن التفكير فيها فقد فعلت في هوان ودموعي تنساب من وجهي إلى رؤوس أصابعه، ودخلتْ أمي علينا تلك اللحظة تحمل صينية الشاي، ورأت ما كان من أمرنا فسقطت منها إلى الأرض، وجعلت تلطم وجهها وفمها وتصرخ صراخا عاليا، فما كان منه إلّا أن انتفض انتفاض الطير المذبوح وجرى نحوها وانهال عليها ضربا أليما وإقذاعا قبيحا[2]، فاسودت على أثر عنفه منها العينان، واحمر الوجه وانتفخت الشفتان، وأقبل أخي عليه مستاءً لحال أمي فلم يكن عقابه بأهون منها، ونمت تلك الليلة وأنا أسمع بكاء أمي يتناهى إليّ مكتوما كأنه أنين دفين تحت أنقاض بيت متهدم.

لقد كان هذا الحادث ذا أثر كبير في مجرى حياة الأسرة، وشكل الخط الفاصل في علاقة أمي ببعلها كما يفصل نور الفجر الصادق آخر الليل عن مطلع النهار؛ ففي صباح اليوم الآتي -وأذكر أنه كان صباح يوم أربعاء- انتهزت أمي ذهاب زوجها إلى عمله فخرجت تجرني من يدي وتضم صغيرها إلى صدرها ملففا في قماطه، كأنما تلوي على الفرار، فيما تبعنا خالد ونحن لا ندري أين نذهب، ثم استقلتنا جميعا سيارة أجرة، وفي الطريق

1 إدًّا: فظيعا.

2 الإقذاع: الشتم.

سألنا أمي أين نحن متجهون؟ فقالت إننا بصدد زيارة عمّ لنا! أعجب بها من زيارة! وأعجب بها من صلة قرابة لم تدر لي يوما في الحسبان! وسألها أخي خالد -وأنا مأخوذ من الدهشة- لمَ لمْ نر عمنا هذا قبل اليوم؟ فقالت إنه كان في سفر -تلك الكذبة المتكررة- بيْد أنني علمت فيما بعد أنه كان في نزاع مع أبي حول ريع من ميراث جدي فاز به دون أن ينال أبي أي طائل، لذلك انقطعت أسباب الأخوة. والحق أن خروج أمي على تلك الصورة من البيت كان بعد تبييت مسبق لم يعدُ في البداية حديث النفس، ولكن الخطوة الحاسمة لم تكن لتأتي لولا الحادث الأخير. ولم تقصد أمي بيت عمي حصرا دون غيره إلّا لأنّ صلتها بأهلها انقطعت؛ فخالي الكبير انتقل إلى الدار الآخرة، والأصغر منه هاجر إلى دولة غربية واصطحب أسرته جميعا، أما أصغرهم فقد كان سكيرا أدمن الخمر في أعقاب وفاة جدتي ولم يكن يبالي بأمر أمي شيئا -وصلنا فيما بعد نبأ وفاته أيضا على حال من السكر شديدة- ولأن عمي بات آخر من بقي لنا من ذوي القربى.

وأنزلتنا السيارة عند مفترق للطرق سرنا بعده مسافة قليلة نسبيا حتى صرنا قبالة بيت مسور بسور عال من أشجار السرو، له ثلاث بوابات خضراء تمتد خلفها حديقة فسيحة تنتهي إلى فراندا مزججة، وتتوسطها فَسْقِيّة[1] تمج ماء نميرا. لبثت أمي لدى الشارع الخارجي مترددة بعض الشيء وتوترها غير خاف على أيّ منا، ثم قرعت الجرس ووْرِبَ على إثر ذلك

[1] الفَسْقِيَةُ: حوض مستدير من الرخام، تمجّ الماء فيه نافورة والجمع: فَسَاقِيّ.

باب المدخل الرئيس للفراندا عن وجه امرأة تبدو في الحلقة الرابعة من العمر -كانت تلك المرأة زوج عمي- ففاجأتها رؤيتنا ولكنها لم تملك إلّا أنْ تشرع باب البيت أمامنا، ثم دعتنا إلى الدخول فدخلنا وأنا لا أعلم سبب مجيئنا، ثم أجافتْ الباب[1] بعد دخولنا وهي تردد عبارات الترحيب بنا وتدعونا إلى الجلوس في الصالة، وغابت في جوف البيت ولم تلبث أن عادت تحمل صينية ذهبية تقوم فوقها فناجيل القهوة وأكؤس الماء، وانسلخ بعض الوقت في حديث المجاملات والترحيب التقليدي طبقا للأصول المرعيّة، تخللته رشفات القهوة، ثم تساءلت زوج عمي عن سبب مجيئنا، ولا شك أنّها ألمتْ بشيء من حالنا مما رأته على وجه أمي، فقالت الأخيرة بقدر غير قليل من التحرج:

- يا ست نادية، عانينا عذابا شديدا متصلا مع زوجي -لا سامحه الله- لقد أهانني وأهان ابنيّ مرات عدة، ولم يعد في وسعي تحمله فقد حصل حادث أليم الليلة الفائتة كان القشة التي قصمت ظهر البعير.

قالت زوج عمي بعد أن حست حسوة من فنجال القهوة وأعادته إلى المنضدة على صحنه:

[1] أجاف الباب: رده.

- أرى حالك وهو حال يصعب على الكافر، وأتمنى من صميم قلبي أن يعوضك الله عوض الخير، ولكن صدقا ما باليد حيلة، فماذا تريدين منا أن نفعل؟

فقالت أمي مستعبرة:

- أريد أن يسعى زوجك داود بطلاقي وخلاصي من براثن ذاك الوحش، فرغم ما حصل بين زوجك وزوجي -رحمه الله- فإنه يبقى أخاه الوحيد، ولن يهون عليه -حينما أطلعه على واقع أمرنا- أن يبقى ابنا أخيه على حالهما التي يعيشانها.

- إن شاء الله خير، ولكنه الآن في القهوة مع شمل من أصحابه، وهي عادة دأب عليها كل صباح مذ أحيل إلى المعاش، فانتظري قليلا فإنه سيعود بعد نحو ساعة على وجه التقريب.

قالت ذلك ونهضت إلى المطبخ لتعد لنا فطورا، وعادت بعد برهة تحمل صحاف الخبز والحمص والزعتر والجبن وإبريق الشاي، فأصبنا فطورنا على خجل واستحياء، ثم جعلتُ أجوس بناظريّ في الصالة أتفحص الستائر الحريرية المنسدلة على النوافذ، أو أتتبع النقوش في البُسط، أو أطالع أصص الريحان، ولم يلبث عمي أن قدم ودق الباب فابتدرته زوجه، وما كان أعظم دهشته حين رآنا، غير أنّه اقتعد مجلسا بإزاء أمي وقال دون أن ينظر إلينا:

- أهلا وسهلا يا أمّ خالد، خيرا إن شاء الله؟

واستعبرت أمي فجففت مدامعها بطرف منديلها ثم قالت:

- جئتك يا أخي راجية أن تخلصني من عذاب ملازم طويل.

ارتشف الشاي قبل أن يقول في هدوء وبرود فاجآني كثيرا، وهو يعقد ما بين حاجبيه:

- إن كنت تريدين مالا، يا امرأة أخي، فلست في بحبوحة من العيش تسمح لي أن أعطيك شيئا... وقاطعته أمي وهي تهزت رأسها علامة على نفي ظنه:

- لست أسألك مالا ولا مؤونة، وإنما أريد منك أن تسعى في خلاصي وخلاص ابني أخيك مما نعانيه.

فقال وقد ظهرت أمائر الاهتمام في وجهه:

- ماذا تقصدين بقولك؟ أبيني وأفصحي.

فنفضت له أمي جملة الحال، فأثار حديثها اهتمامه، وعاتبها فيما يشبه النهر متسائلا عن سبب صبرها هذا، فقالت إنها لم ترد الطلاق خشية أن تنالها ألسن الناس أو أن توسمها بلفظ "المطلقة" ولكن الحال لم يعد يحتمل فلا بدّ من أن يوضع له حدّ. فضحك عميّ من خوفها ذاك، ثم ظلّ هادئا منصتا يتابع سائر حديثها حتى أتت على ذكر حادثة أمس فانفجر غاضبا متعجبا، وخار كما يخور الثور، وجعل يهدد ويتوعد مشيرا بأصابعه لا ندري من يتهدد ولا من يتوعد، ثم سأل أمي -ولم يزل في ثورة غضبه- عن الساعة التي يعود فيها زوجها من العمل ليذهب للقياه وتأديبه كما

قال فردت بأنه يكون في البيت في نحو الرابعة عصرًا أو أقل قليلا. وجلسنا جميعا ينيخ علينا صمت مشحون بالتوتر، ثم انفجر أخي الصغير بالبكاء فضاق عمّي به ذرعا ودخل إلى حجرته كيْما يستريح بحسب قوله، وتبع ذلك وقت طويل مرهق للأعصاب، ثم حل ميقات الغداء فتناولنا معا كفتة وأرزا، ومكثنا في البيت حتى بدأت الساعة تدور في رحى الرابعة -وقت رجوع بعل أمي من عمله- فانفلت عمي من انفراده الطويل متأنقا في ثيابه وقد حلى خنصره بفص ماسي، وخرج يعلوه وقار ظاهر ويتضوّع[1] حوله عَرْف طيب. وغاب لنحو ساعة ونصف رأيت أمي خلالها تلتهب من القلق تكاد أفكارها تتجسد أمامها، وإني أظن قلقها لو تجسد مادة مرئية فعلا لأحرق المنزل بمن فيه. ولم تعدُ الساعة السادسة حتى جاء عمي، فاندفعت أمي عليه ولببته في استعطاف وتساؤل، فهدأ من روعها وقال:

- جئتك بخبرين أحدهما حلو والآخر مر.

فقالت أمي في إشفاق:

- لم يعد القلب يحتمل مزيدا من المرار فقل الخبر الحلو ابتداءً وأرجئ المر لما بعد ذلك.

فقال عمي وهو يتهاوى على الأريكة:

- دعيني أرتاح قليلا.

ثم نادى على زوجه:

[1] يتضوَّع: ينتشر ويشتد.

- إئتني يا نادية بكأس ماء بارد محلى، فإني أظن أن سكر دمي آخذ في الهبوط.

فأتته بكأس ماء شيْبَ بعسل، وشربه على دفعات متتاليات، ولما استنام نوعا أنشأ يوجه حديثه إلى أمي:

- طرقت باب منزله ظانا أنه لم يعد بعد، ولكن صوته أتاني من الداخل متسائلا عن الطارق، فعرّفته بنفسي ولكنه لم يعرفني غير أنّه فتح الباب فجليت له أمري فدعاني إلى الدخول، ودخلت مشمئزا من هيأته وجلست في غرفة الأضياف، فنظر إليّ قبل أن أقول شيئا وقال إنّه مستعد لطلاقك فالمرأة التي تخرج من بيتها دون إذن زوجها عاهرة -أستغفر الله- فأراحني من عناء طويل كنت أتوجس منه خيفة، ولكنه استطرد يقول: إنّه غير مستعد أبدا للتنازل عن حضانة ابنه الصغير، فحاولت جهدي إخباره بضرورة أن يحظى الطفل الذي في عمره بكلاءة[1] الأم وعطفها وحنانها، فقال إنّ هذا شرطه الوحيد وإنّه لن يتنازل عنه.

فشهقت أمي شهقة خلت فرائصها قد تصدعت معها، ولكن لم يكن ثمة نُدحة عن النزول عند شرطه إذ العودة إلى بيته انتحار بيّن. وجعلت أمي تستعطف عمي أن يعيد مخاطبته عله يحيل رأيه في هذا الشأن، ولكنّ عمي أكّد صلابة رأسه وعناده على رأيه وأنّه لم يدخر جهدا في

[1] الكلاءة: الرعاية

تغييره، فاستخذتْ أمي وتهالكت على كرسي كان موضوعا أقصى الصالة وهي ترسل دموعها، وأقبلتْ عليها زوج عمّي مهدئة مصبرة، وبتنا في تلك الليلة والليالي القليلة التي تلتها في بيت عمّي.

ووقع الطلاق بالفعل في غضون أسبوع، وانتقلنا -أنا وأمّي وأخي- للعيش في منطقة الهاشمي، ونُقلتُ مع ذلك إلى مدرسة جديدة، وكنت على وشك أن آلف الأولى، ما يعني أنني سأعيش ألما جديدا وعذابا متجددا.

5

وانقضت سنوات الدّراسة الابتدائية في مدرستي الجديدة على حال دراسي سيئ أداءً وتحصيلا، فقد تراجع مستواي الدراسي خلال السنتين الثانية والثالثة تراجعا غريبا لا أدري لماذا، فضلا عن أنّني عانيت فيها اجتماعيا عذابا شديدا وألما قهارا لم يرحما حداثة سني ولين عجينة نفسي، وصارت تأتيني نوبات انفعال في البيت موجبها الضغط العصبي كبحتْها أمي وشكمتها بعنف وحزم فلم أعد أقدر على التفريغ عن دواخلي وعانيت من كبت نفسي عظيم انبثقت آثاره وتمخضت عن كآبة متأصلة، وجعل الأرق ينتابني مرارا فلم أكن أنام لساعات طويلة، فضلا عن ازدياد خجلي وحيائي من الناس وهروبي من مجتمعاتهم أنّى كانت.

ومررت في تلك الفترة بمحنة هزت كياني الطفولي هزا، ووسمت نفسي بندوب عميقة أظن أثرها باقيا حتى الساعة، كان أن عايشت تنمرا من جماعة من طلبة الفصل، إلى ما فرضه عليّ صبي منهم -واسمه عمار- من حياة بالعبودية أشبه، فكان يوكل إليّ أن أقوم بأمور عدة عنه كحل الواجبات الدراسية على سبيل المثال لا الحصر، وكثيرا ما استولى على القروش القليلة التي كنت آخذها من أمي كمصروف مدرسي يومي، وربما أخذ ما كنت أحمله أحيانا من أرغفة وفاكهة وعصائر، وكثيرا ما صفعني

على قذالي، وكثيرا ما جندلني[1] على الأرض، متخذا مني مادة للتسلية وإضحاك أقرانه من الطلبة.

كان عمار طويلا على صغر سنه، عميق السمرة يبدو رجلا بالقياس إلينا، لذلك كنت أعتقد فيه الكمال -والنفس تنزع إلى طاعة من تظن فيه الكمال- ولم أكن أجسر على رفع شأنه معي إلى أمي أو إلى ناظر المدرسة خوفا ورهبة من رد فعله إذا علم، بل لم أجسر يوما حتى على النظر إليه إلّا إذا وجّه حديثه إليّ، وكنا إذا لعبنا رياضة كرة القدم أو غيرها من النشاطات البدنية قرر هو من يلعب، وفي أي مركز يلعب، ومتى يخرج من اللعب، وبمرور الأيام وتوالي الأحداث بيننا صار طيفه يشدد عليّ الخناق حتى في الأحلام، فمرة رأيتني أفر فرارا وهو يلاحقني قابضا بيده على هراوة حجرية، في طريق طويل ضيق مظلم رطب تحيط به أشجار سامقة، وترين عليه كآبة موحشة، وكنت أركض متعثرا وألهث ما وسعني نَفَسي حتى أمسك بي أخيرا، فقال: ((لن تفلت مني فأنا قرينك)). وكال لي ضربة موجعة سقطت على إثرها على الأرض والدم يسيل من أنفي وأسناني تتناثر. استيقظت عند ذاك منزعجا ولا أذكر فرحة مررت بها كفرحي حين أيقنت بأنني كنت أحلم. من أجل ذلك، ومن أجل أحلام أخرى مشابهة، وواقع مشهود مؤلم، كنت مليّا أحاول التغيب عن المدرسة منتحلا أعذارا شتى، كأن أدعي المرض واضعا سبابتي ووسطاي في جوفي كيْما أستقيء، أو أن

[1] جندله: رماه، طرحه.

أزعم بأن الطلاب في رحلة مدرسية لست مشاركا فيها، إلى غير ذلك من الحجج والأعذار. وكم كان يحلو لي إذا انطلى ادعائي للمرض على أمي أن أبقى أتقلب في فراشي في سعادة خفية عن الأعين، أشرب الأعشاب الساخنة وأشاهد برامج الأطفال التلفزيونية! كانت تلك أويقات ساحرة بحق تعبق بروائح الصباح، وشمسه المنسلة عبر حجر النافذة، وأصواته ونأماته المنبعثة من أفواج الناس الساعين إلى أرزاقهم، وكم كان حماسي يبوخ مع كل ساعة من النهار تنقضي، حيث أشعر بضياع أوقات بديعة من صباح يوم فاتني إلى الأبد، وبأنني عائد إلى السجن مع مطلع اليوم التالي ما في ذلك من شك، فتزداد كآبتي شيئا فشيئا حتى أسلم بالأمر الواقع، ثم تتوالى الأيام على حال واحد وعمار يبسط سيطرته الثقيلة عليّ كالظل الخبيث.

ويوما غادرنا المدرسة والشمس ترسل أشعّة حامية، وسرت ميمما البيت -وكنت حينها قد بدأت أغادر منفردا- وانحنيت في طريقي لأوثق رباط حذائي فما شعرت إلّا وقدما تركلني في مؤخرتي، وما رفعت رأسي حتى ألقيتْ يد على منكبي، فذعرت بادئ الأمر في إجفال يسير ولكن لم يلبث خوفي أن ازداد ازديادا ملحوظا تمثل في ازدراد الريق وذبول العينين وانفراج الشفتين في بلاهة، إذ كانت اليد يد عمار، وطالعني ساعتئذ بوجهه الكالح المقفر من أية ملامح، وجعل يربت على ظهري بشكل أشبه بالدق على طبل، وظل صامتا قليلا حتى قال أخيرا:

- الجو حار اليوم، ما أطيب المشروبات الباردة على القلب في مثل هذه الحرارة! هل تملك شيئا من المال؟

ولما أجبت بالنفي شتم أمي، ثم واصل سيره وهو يأمرني في تسلط وعجرفة أن أتبعه، فصدعت وسرنا بين جموع الناس وأنا من الرهبة في غاية حتى وقفنا أمام دكان بقال يقف داخله رجل عجوز خلف مكتب مستطيل يقوم عليه ميزان ويتموضع دفتر الحسابات وبعض أنواع السكاكر، قال لي عمار وهو يشير إلى زجاج الدكان:

- أنظر إلى تلك الثلاجة في الداخل، أريدك أن تدخل وتتناول زجاجتين من الكوكاكولا الباردة، وتظاهر بأنك تبحث عن نقودك أمام العجوز ثم أطلق ساقيك للريح، أتفهم؟

هالني طلبه لكنني لم أكن أملك أن أعارضه بأي حال من الأحوال. ولكن كيف أسرق وأنا لم أمارس هذا العمل من قبل؟ على أية حال انسحب عمار إلى الناصية المقابلة وأسند ظهره إلى حائطها عاقدا ذراعيه حول صدره، ثم طالعني بنظرة آمرة حازمة وهز رأسه يسارا، فدخلت الدكان لا أملك من أمري شيئا، وجعلت أجوس خلالها كأنني أشاور نفسي في أية بضاعة سأتزود، ثم أقبلت على الثلاجة وأخذت زجاجتي مياه غازية محلاة، وما تمالكت أنفاسي حتى فررت باتجاه الباب ولكنني اصطدمت برجل يدخل فأمسكني من كتفي، وأقبل عليّ العجوز صاحب الدكان موبخا مهددا. كانت لحظات صعبة خلتها دهرا، ونظرت إلى عمار فرأيته

ينسحب تاركا مكانه، وصفعني العجوز عندها صفعة مؤلمة وشد على أذني وهددني إن أنا كررت فعلتي هذه بأنه سيبلغ الشرطة أو أنه سيعلقني من رقبتي في مروحة السقف لأيام طويلة، وبكيت كثيرا حتى خلت رأسي سينفجر، وجعل بكائي الرجل يشفق عليّ فتركني وشأني فغادرت إلى البيت بلا إبطاء، ومن حسن الحظ أن الحادثة مرت بسلام أخيرا دون أن تعلم أمي عنها شيئا.

هكذا مرت سنين الدراسة الثلاث الأولى، بأحداث ليست على قدر قليل من المشابهة، ثم كانت السنة الرابعة منها فنقلت معها إلى مدرسة أساسية للذكور، وتوجست خيفة في قلق موبق[1] كشأني دائما إذا أقبلت على شيء جديد، غير أني فرحت فرحا شديدا بانتقال عمار إلى مدرسة أخرى، ولم أعلم عنه شيئا بعد ذلك حتى هذه اللحظة، وكم كانت سعادتي بالغة في الخلاص من سطوته! وقد استحالُ كل ما يمت إلى الدراسة بسبب إلى حال مختلف، فقد اختفت البنات من حياة المدرسة ولم يعد لهن وجود وهذا الواقع الجديد أراحني نوعا إذ كنت أخجل خجلا أذوب معه في حضورهنّ، واستبدل بالمعلمات معلمون سيماهم الفظاظة والغلظة، وعرفت العصا وعقابها على يدهم لأول مرة في مدرستي الجديدة، وكان العقاب البدني لذة لهم وكانوا يسوموننا -لقضاء لذتهم- سوء العذاب. ومرة تأخرت عن طابور

[1] الموبق: المميت.

الصباح فضربت على أناملي بالعصا ضربا مؤلما أبكاني بشدة، وتعذر المعلم بغيابي عن السلام الملكي وقد سمعت ذات المعلم فيما بعد يسب الملك في جلسة ساخطة مع غيره من المعلمين! وتزود الطلاب من بكائي بعد ذلك العقاب بمادة للهزء والزراية لم ينفكوا يسوطونني بألسنتها بين الحين والحين رغم أنهم كانوا يضربون أيضا غير أنني لم أكن لأجسر على الشماتة بهم في سري فضلا عن جهري.

أما في حياتي البيتية فقد أخذت مساحتي من اللهو واللعب، ولكننا عانينا شظف العيش ورقة الحال حتى تبرمنا بالحياة، وكان مرد ذلك إلى انقطاع نفقة زوج أمي عنها من ناحية، وازدياد احتياجاتنا اليومية مع تقدمنا في العمر من ناحية أخرى، فلذلك لم نكن في تلك الأيام نصيب من الطعام غير قليله، ولا نرتدي إلا الخِلقان من الثياب[1]، أما عمي فقد نسينا أو كاد فجعلت أمي تعد مأكولات بيتية مختلفة وتبيعها إلى السوق أو إلى الجيران أو إلى صويحباتها من النسوة، وعمل أخي صبي بدّال في حي مجاور، وكان يغيب أوقاتا طويلة ثم يرجع إلى البيت بدخل حسن لذلك محظته أمي ودها ودللته تدليلا، وجعلت تقدمه عليّ في كل شيء حتى في يسير الأمور مثل الدعوة إلى الطعام أو شرب الشاي، وما هو من هذا القبيل، وصرت مع ذلك أشعر بأنني مهمل إلى حدّ ما مثل نبتة في مقبرة، ولا أخفي أنني شعرت في لحظات معينة بكرهٍ تجاه أخي ولكنه كان كرها حسديا

[1] الخِلقان من الثياب: بالها.

وحسب، فبرغم هذا الكره إلّا أنّني كنت أحاول أن أقلد حركاته وسكناته، وتسريحة شعره وهندامه، وسائر أحواله الشخصية، وصرت أسعى إلى التفوق في مناحي الحياة دراسيا ومنزليا تحدوني رغبة في جذب انتباه أمي، ولكن محاولاتي كافة باءت بالخيبة. وأقبل أخي على حياته الجديدة التي كان عنوانها الحريّة المطلقة في شبق ونهم إن صح التعبير، وصار ينظر إليّ نظرة الأخ الكبير المرشد، وكانت توجيهاته لي توجيهات بابوية فيها شيء من التسلط، ولما كنت آمن عقابه البدني لي -الذي لم يكن يجسر عليه في حضور أمي- فقد رفضتُ سلطته رفضا قاطعا إذ كرهت أن أرى فيه الأثير عند أمي والآمر عليّ في آنٍ واحد، ومرة شدد عليّ في طلب معين فصرخت في وجهه رفضا فما كان من أمي إلّا أن نهرتني، وانتفض عند ذاك كبرياؤه فأقبل عليّ وصفعني عدة صفعات متتالية دهشت لها ولكن ما كان أكبر دهشتي حين سمعت أمي تشجعه على ضربي لأنني ولد قليل التربية بحسب قولها. منذ ذلك الحين صرت أأتمر بأمره على مضض خشية أن يبطش بي، وانعكس ذلك على معاملتي برفق وحنو وعاطفة مع الطلبة الأصغر مني سنا في المدرسة، بل ومع من هم دوني سنا أو مكانة أو من هم تحت يدي في عملي فيما تلا ذلك من سنوات.

ومن الأمور التي حاولت تقليد أخي فيها مما كنت أقلده فيه: التدخين. لقد اعتاد التدخين في بيئة عمله ولكنه كان يدخن بمعزل عن ناظري أمي لا خوفا بل احتراما كما كان يقول، وكنت يوما عائدا من المدرسة فألفيته

ينزوي في ركن تحت درج البيت ويسحب الدخان ويطلقه بتلذذ أشكالا مختلفة، فجعلت أنظر إليه خلسة في رغبة غريبة تسوقني إلى التجربة، ثم كان أن رآني لا أدري كيف فأقبل نحوي مكشرا ولببني[1] وصرخ في وجهي مهددا إن أنا أخبرت أمي أنه سيضربني ضربا مبرحا، فلزمت الصمت ولم أجرؤ على البوح بذاك السر الذي عددته في حينها خطيرا ثم عرفت فيما بعد أنه من مسليات الدنيا ومن مذهبات همومها ومما يروح به الإنسان عن نفسه.

ولم يطل بي المطال حتى جربت التدخين فعلا، فذات يوم صادفت زميلا من زملائي في المدرسة وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، وكان ذاك الولد بشوشا دوما، ولا أذكر من تفاصيله اليوم إلّا عينه اليسرى التي يميل عليها جفنها في صورة غريبة، وشعره القطط الأسود. أقول إنني صادفت ذاك الولد -وكان اسمه محمد- اتفاقا، فرمى يده على كاهلي في ترحيب، وما أثار عجبي حينها أنني لم أتبادل معه من قبل إلّا كلمات قليلات. وجعل يسألني عن حالي وكيف كان يومي وأنا أجيب باستغراب وتحفظ، ثم كان أن أخرج من جيبه علبة سجائر وقال لي:

- وجدت هذه العلبة ملقاة على الأرض، وبها تسع سجائر كاملة، أتدخنها معي؟

[1] لبّبه: أخذ بتلبيبه، أي جمع ثيابه عند الصدر.

وتحلب لعابي[1] وارتفع وجوب قلبي، وقلت وبي رغبة في إظهار اللامبالاة:

- لا مانع، ولكن أخشى أن يراني أحد من الناس، أو أن تشتم أمي رائحة فمي عند دخولي البيت.

- لا تخش شيئا، هناك الجبل نصعده وندخن بمنأى عن الرقباء، ولنأتي بالعلكة ونمضغها جيدا بعد التدخين لئلا تبقى رائحة الدخان عالقة في الفم. جرّب. لن تندم. لا تخش شيئا. سوف يصيبك شعور عجيب هو أشبه شيء بنبوت جناحين والتحليق بهما.

ولم يطل الشد والجذب حتى كنا نشق شعبا من شعب الجبل، ثم صعدنا منه إلى وهدة تقوم في جانبه الغربي تظللها شجرة سامقة بظلال وارفة[2] فئنا إليها[3]، ولما استرحنا أشعل هو سيجارة في البدء وجعل يجذب منها وينفخ المرة تلو الأخرى، ثم مد العلبة لي في تقليد نرجسي للكبار فأخذت بدوري سيجارة منها وأشعلتها وأنا لا أردي كيف تُدخن، ثم أتبعنا السيجارة الأولى بالثانية ثم بالثالثة، وأتينا على العلبة كاملة، ولم تمض بعد ذلك دقائق حتى أرهقني شعور أليم بالخزي ووخز الضمير لم يفتأ يزداد خصوصا بعد أن خلوت إلى نفسي ليلا وذكرت عذاب الله للعاصين من عباده واستشعرته في جو الحجرة، فأخذت عهدا على نفسي بألّا أقرب

[1] تحلب اللعاب أو الريق: سال.

[2] الظلال الوارفة: المنبسطة.

[3] فاء إلى الشيء: لجأ إليه.

التدخين بعد اليوم، وكان هذا الإصرار سببا في غضب محمد مني إذ أتاني بعد يومين يزعم أنّه وجد علبة سجائر أخرى، وعرض عليّ كرة أخرى فرفضت في خوف، وقلت إنّ السبب ليس إلاّ أنّي أشعر بمغص في بطني وأنّي أريد أن أسرع في الإياب إلى البيت، فقال مستهزئا: ((أنت كاذب ولست إلا فتاة في ثوب صبي)). وما كان أقسى هذه الكلمة على نفسي!

6

مرّت سنوات رتيبة على الحادث الأخير ليست على جانب كبير من الأهمية، ومن ثم فلا شيء فيها يستحق الذكر إلّا وفاة جدتي التي حزنت لها حزنا ضاعف ما جرعتني إياه حياتها من السعادة! وأيْفعتُ خلال هذه السنوات ثم أخذتُ أتدرج في سلك الدراسة الإعدادية، وظهر لي يقينا أنّني لست إلّا مأفونا وغرا جاهلا بالحياة والناس[1]، فما كان أكثر ما خُدعت وغرتني بالكثير الأماني، وكأيّن من شخص أدار لي ظهر المجن[2]، ومن خلته من الأدنين مني عفّتْ[3] آثاره الأيام والأعوام.

لقد عاصرت مجتمعا معقدا لا أنتمي إليه، بل خلت أنني مفصول عنه بالكليّة، فلم أكن أهنأ بالراحة لا في المدرسة ولا في البيت، لا في المنام ولا في اليقظة، ولا في مزدحمات الحياة ولا في خلواتها، بل كنت أشعر بأنّي مفصول عن نفسي التي بين جنبيّ كأنني أعاني من شرخ في الروح لا سبيل إلى ردمه كأنه غورٌ من الأغوار الذاهبة في الأرض، وكثيرا ما انتابني إحساس بأنني أسير بين البشر فردا منهم ولكن فردا عاجزا غير نافع كالأعضاء

---

[1] المأفون: الأحمق.

[2] أدار له ظهر المِجَنّ: عاداه بعد مودة.

3 عفّتْ: أزالت.

الضامرة. هل يا ترى ثمة مُلام على الناس لو قرروا يوما بالإجماع أن ينهوا وجودي من الحياة؟!.. وقد مرّتْ أوقات شعرت خلالها بفراغ استطال أثره وامتد -كأنه ظل داخلي- حتى شمل حياتي الدينية فأُنسيتُ واجبتها أو كدت، لقد كان فراغا روحيا مرهقا لو لم يعذب الإنسان بغيره في الدنيا لكفاه تكفيرا عن ذنوبه وخطاياه، هو الجحيم بعينه، آلمني كثيرا وعذبني كثيرا، ولم يعد يطرأ معه على البال شيء أكثر مما يطرأ نعيق غراب الموت، ولشدّ ما فكرت في الموت بإفراط! ورأيت نفسي حينها بأنني إنسان مشرف على هاوية القبر. كان التفكير في الموت ملاذا تلوذ به النفس المعذبة، ومهربا مؤقتا من لظى الآلام النفسية، هذا الموت الذي إن جاءني أراحني وإن نأى عني مسوّفا دفع عني قلق الخوف منه، فهو في الحالتين منجى من دواخل مظلمة، وهو في نقيض الحالتين سبب من أسباب العذاب! فلماذا لا نتصالح مع فكرته على قاعدة شيشرون: التفلسف هو تعلم الموت؟!.. لماذا الخوف منه وهو النهاية المحتومة والأمر المسلم الوحيد الذي خرج معنا إلى النور عند مولدنا وكأنه كان معنا في الرحم؟!.. لماذا التشبث المستميت بالحياة على ما نجتره منها من ألم؟!.. ولكن مهلا، إذا كانت الدنيا مسرحا للعذاب كما عاصرتها فلماذا تكون الآخرة على خلاف ذلك؟!.. ومَنْ مِنَ الأموات بعث في الحياة حتى يجلي لنا حقيقة الموقف؟!.. أولن أستطيع كشف النقاب إلا أن أذوق الموت؟!.. سأموت يوما بالفعل، وهذه الحقيقة ليست إلّا مسألة وقت محضة، ورغم أمانيّ الدائمة فيه إلّا أنّني كنت

أشعر في بعض الأحايين بهلع منه، وأستيقظ في هزيع الليل الأخير مذعورا، وأظل مسهّدا حتى متنفس الصبح متفكرا في نقيض الحياة، وفي الخط الفاصل بينهما -هذا الخط الغامض في كنهه والجليُّ في حقيقته- وفيما يجري على الأموات من سيئ الأمور، فأخال أن حياتي ليست إلّا حلما عابرا. فكيف يجري الأمر على الضفة الأخرى من النهر؟!..

لقد كانت تلك الأيام عصيبة بحق راعى انتباه أمي خلالها شحوب وجهي وترقق جلدي وبروز عظمي، ولطالما حاولت جاهدة سوقي إلى الكلام والبوح بذات الصدر ومكنونه ولكنني كنت عاجزا عن التعبير كأنما لي لسان ملجم وقلب متجمد، وكنت أرتمي على فراشي في إرهاق لساعات طويلة لذلك ساقتني يوما إلى الطبيب ولكن لم يتبين بي أي خلل عضوي، ونصحها بأن أكثر من عصائر الفواكه الغنية بالفيتامينات كالبرتقال والليمون. ترى هل ثمة شراب لأمراض الروح؟!.. ورجعتُ إلى التدخين أبتاعه مما أدخره من مصروفي، من بقالات متفرقة في أحياء لا يعمل أهلها عني شيئا، أسير في شوارعها متخبطا أمجُّ الدخان أشكالا في لامبالاة متحرجة، ولولا نفسي الضعيفة الخائفة لأقبلت على الخمر أعبها عبا، وأنهل من ملذات الحياة على صغر سني ما ينسيني الخور والضعف، ولست أدري كيف كانت تنتابني تلك الرغبات ولعلها كانت دفعا من النفس المحصورة لمعالجة الهموم والآلام، تلك النفس التي شاختْ والتي طالما تاقت إلى الفرار من الدنيا ولكن حال دونها قفص العظم وأكوام اللحم وأديم الجلد في ظروف

معيشية ونفسية هصرتني هصرا لا يرحم حتى تبرّمتُ[1] بالحياة جميعا. ألم يكن ممكنا أن نكون جميعا سواسية في الحالة النفسية والمزاج والشخصية والقدرة وما يناقض العجز؟!.. سيعترض معترض بأن الاختلاف بين الناس من ضرورات الحياة، وإنه جبلة جبل البشر عليها. فما فائدة الاختلاف وما وجه الضرورة فيه حينما يصب في نصيب إنسان على حساب آخر؟!.. وأيّان تنتهي هذه الحياة الأليمة؟!.. وهل من طبيب يمد يده إلى جوفي فيستغث جراحي النفسية[2]؟ وحتام أحتمل هذا الألم الذي لا يستقصى[3] وذاك العذاب الذي لا ينتهي؟!.. ومتى أموت وأبعث بين يدي الله تعالى حتى أعلم يقينا وجه الحكمة في هذا العذاب الذي أذاب مني الكبد وأحرق الروح؟!..

ومررت بتجربة لم أمهد لخوضها قط، وكنت أسمع عنها اتفاقا في أحاديث طلبة المدرسة، وكان لها عميق الأثر في نفسي ولم أنسه حتى اللحظة، ومؤاد تلك التجربة كان أن استيقظت يوما في جوف الليل على خلاف ما ألفت الاستيقاظ عليه، إذ راودتني أحلام جنسية غريبة وأخيلة شهوانية جهنمية، وخلت أني قد بلت على نفسي فأصابني لذلك توتر عظيم وقلق غير مسبوق ارفضّ له جبيني عرقا، وشعرت على الأثر بلزوجة ورطوبة تنداح على فخذي، وبعطونة غريبة تزكم الأنف؛ فاتجهت مهرولا

[1] تبرّم الأمر: ضجره وسئم منه.

[2] استغث الطبيب الجرح: نقى غثيثه وصديده.

[3] لا يستقصى: لا تدرك له نهاية.

صوب الحمام ودلفته وأنا أخال الجدران عيونا ياقظة تحدق فيّ ساخرة مستهزئة، وأحكمت مزلاج بابه خلفي ونزعت بنطالي وإذ بسائل لزج ثقيل أبيض يملأ إحليلي وتزخر به ملابسي الداخلية، وقد كان من العطونة بحيث ظننته بادئ الأمر حدثا ناجما عن خلل عضوي فأصابني خوف غير قليل، ثم استجمعت شتات نفسي ولملمت شارد أفكاري فذكرت أحاديث الطلاب عنه، وعلمت حينها أنّي صرت رجلا بمقياس الجسد لا بمقياس النضج، وداخلتني حسرة مباغتة على سني طفولتي الضائعة وكأني كبرت خمسين عاما في دقائق معدودات، ثم اجتهدت في إزالة الضرر عن الثياب حتى لا تعلم أمي شيئا وأنا في غاية من الهم والكدر، ورجعت إلى حجرتي يحدوني شعور بالخزي لا أعلم سببه وتعِلّته، ولذت بفراشي كأنني أفرّ من الواقع الجديد المؤلم ومضى هزيع من الليل وأنا أتقلب فيه حتى لاح نور الصباح، وكان اليوم اللاحق يوما مدرسيا فجعلت أكلأ بصري[1] في وجه أمي على مائدة الإفطار لأقرأ أيّ مخايل مستفسرة عن تغير طرأ علي.

ورافق ذاك الحادث -خلال أسابيع لاحقة- تغير في هيئتي وتركيبي الجسماني، واخشوشن صوتي، ونبت الزغب على عارضي وخط الشّاربُ في وجهي دقيقا عشوائيا كالحشائش البعلية، واستحالت نفسي إلى مسرح تتواتر عليه رغبات المراهقة الجسدية المضنية، وحسرات الصبا المتداعية،

[1] كلأ بصره في الشيء: ردده فيه.

يشتد بعضها في أثر بعض، ويدفع بعضها بعضا، وصرت أحيا حياة يائسة حساسة مرهقة للقلب، ملؤها العزلة والحزن، حياة الطفل الذي لم يعد طفلا والذي رأى أركان العالم الطفولي تتداعى من حوله. وكان من عادتي أن أذهب مع أمي إلى بيوت الجارات فجعلن مؤخرا يستترن أمامي ويبتدرن لدى دخولي الحجاب، وكان لذلك دور في مضاعفة عذابي إذ شعرت بنفسي منبوذا كالوباء. والحقيقة أنني لم أمِلْ في ذاك الوقت إلى الجنس الآخر أي ميل عاطفي، ولم يخطر لي على بال أن أخوض غمار الحب يوما أو أن أعمل فيه فكري كرجل، فضلا عن أن نفسي كثيرا ما كانت تهفو إلى طفولتي وما يرتبط بها من مسليات وبرامج أطفال تلفزيونية، في استدعاء حلم واقعه عصيٌ على التحقيق، بل أصبحت كذلك ألجأ على استحياء إلى اللعب بدمى الجنود والحيوانِ مستخفيا عن الأنظار أعالج رغبات دفينة كانت تجنح إلى الفرار، وكنت أستشعر عندها شيئا من الفرح والطمأنينة في أنّني لم أزل ما أنا عليه، فيقل توجُّسي وخوفي من مقبل الأيام -من أجل ذلك كنت كثيرا إذا مرّت بسبيلي فتاة أتعثر بأذناب الخجل في رغبة مكبوتة خجولة في حين أن أترابي كانوا كل يوم يطيفون بسور مدرسة البنات في الحي المجاور بحثا عن علاقات عاطفية محتملة، وأظن أن سبب ذلك يعود في كله أو في جزئه إلى تربيتي الدينية الصارمة التي تمحورت غالبيتها في ترهيبي من صحبة البنات، فضلا عما جبلت عليه من خوف نفسي وعجز اجتماعي غير قليل، ولذلك أيضا شعرت شعورا داميا -منذ تلك

الليلة- بأنني أنتزع من حياتي انتزاعا مؤلما مثل انتزاع نصل مخترق للعظام، ودخلت على الأثر في وحدة نفسية أليمة مرهقة، ولم يراعِ أحد حالتي لا في البيت ولا في المدرسة فأيقنت بفردانية الجنس البشري وتمنيت كثيرا لو أنني خلقت غصنا ملقى على قارعة الطريق، أو ذبابة أو وزغا أو صرصارا أهرس تحت الأقدام، أو أي خلق آخر يكون من الضآلة بحيث يمكنني أن ألوذ مختبئا في أي شق من شقوق الأرض يمرُّ به الناس دون أن يلقوا له بالا، أو أن أستحيل ترابا وهباءً وذرات وأتلاشى في أجواز الفضاء.

وفي المدرسة لقننا أستاذ الأحياء -بعد أيام قليلة- درسا عن وظائف أعضاء الإنسان وكان من جملتها عضوه التناسلي، فطرق الحديث أبوابا أخرى لست عنها بجاهل، وقال إنّ الشاب في سنكم يكون قد مر -أو سيمر قريبا- بتغير عارم على المستويين النفسي والجسدي، ثم كان أن تمحور درس التربية الإسلامية بعده عن ذات الموضوع اتفاقا، وذكر الأستاذ في ما ذكر عن وجوب الغسل من الجنابة -وسمعت بالمصطلح لأول مرة- عقب كل مرة، وأنّ الملائكة لا تقرب من كان على جنابة فضلا عن أن صلاته لا تصح، ولما لم أكن أعرف المقصود بتلك الكلمة فقدت واتتني رغبة ملحة في سؤال الأستاذ عنها ولكن حال دون ذلك خجلي، غير أن طالبا من الطلبة سأل عوضا عني فأراحني بذلك من العناء والفكر، ولما أجابه الأستاذ تفصيلا خطر لي أنني نجس منذ قرابة الشهر، فخجلت من الله خجلا شديدا أدمى القلب -وكنت قد استعدت شعوري الديني مع الحادث

الأخير- فلم أُعتّم -بعد أن غادرت المدرسة- أن تطهّرتُ، وصليت بعدها عدة ركعات عسى أن يغفر الله لي، فشعرت بسمو روحي كبير وقتذاك وأيقنته إيقانا ثم أضعتُ شطرا كبيرا من حياتي في البحث عنه.

كان لهذه الحادثة كبير الأثر في نفسي.. وانعطفت حياتي بعدها انعطافا حادا.

7

هكذا درجت حياتي، في مكابدة وعلى مضض، حتى كانت السنة العاشرة من الدراسة والتي قبعت فيها سنتين، ومرجع ذلك إلى حادث أليم لم تطرأ لي احتماليه أو معقوليته على بال. أجل كنت عائدا يوما من المدرسة سيرا على الأقدام في الطريق الزاخرة بأشعة الشمس، سادرا عن حوادث يومي الآتية، أشاهد الناس يمشون في الأسواق الرطبة ويغدون ويروحون على جاري عادتهم دوما: شاهدت امرأة تجادل بائعا في سلعة ويحتد بينهما النقاش فتعرض عنه بوجهها وتنتقل إلى محل مجاور لتبدأ جدالا جديدا، وسمعت سائق تاكسي يتلاسن مع سائق سيارة آخر ويذكره بأولويته في العبور، ورأيت بائع طيور ينضح بيده الماء أمام دكانه والطيور من خلفه تضمخ الداخل بريح التراب الرطبة المتأتية من رفرفة أجنحتها، وشاهدت الفرّان يقلب العجين بين راحتيه حتى يأخذ شكل القرص الرقيق ثم يبسطه على ذراع ينتهي برأس مسطح ويقذفه في التنور، وشاهدت غيرها الكثير من المناظر المألوفة التي لم تثر فيّ أي اهتمام يذكر، ورغم ذلك تابعت سيري في طريق إيابي وأنا أفكر بمعظمها وبما يصادفني في الطريق، وما صرت عند منعطف البيت واتجهت نحوه حتى شاهدت جمعا من المشيعين يخرجون منه تباعا يتقدمهم رهط يحمل جسدا مسجى على

محفة[1] أدلفوها سيارة الإسعاف، فبوغتّ وجعلت أهرول في رعب وأسناني تصطك وقد داخلني قلق على أمي عظيم، غير أنّي ما لبثت أن وصلت باب البيت حتى رأيتها منحلة مرسلة دموعها تحيط بها طائفة من النسوة يهوّنّ عليها الخطب، وانتبهت إليّ فجعلت تعولُ[2] عويلا محزنا وهي تمدُّ يديها تريد احتضاني فارتميت بينهما في دهشة وجزع، وصرت أبكي معها وأنا لا أدري كنه الأمر حتى سمعتها تقول فيما هي تتنفس الدموع مع الهواء: ((خالد راح.. راح أخوك.. راح بلا رجعة)). فنظرت إليها في بلاهة وعدم تصديق، وتساءلت في اللحظة التالية بيني وبين نفسي كيف يروح بغير رجعة من كان بيننا أمس؟!.. وهل حقا كانت تلك الجثة التي أنكرتها جثة شقيقي؟!.. هل حقا مات خالد؟!.. وهل شعر البارحة بأنّ قدميه تخطوان آخر خطو لهما على وجه الأرض؟!.. و انفجرتُ ببكاء لم أبكِ مثله من قبل حتى تصدعت أركان رأسي، وتشبثت برداء أمي لا أريد عنها فكاكا، واسودت الدنيا في عينيّ وطالعت الحضور بنظرة غائمة مميعة بالدموع لا ترى تفصيل شيء مما تقع عليه، ثم خرجت كأنما أفر فرارا إلى الشارع المحاذي لباب البيت وروحي تتسرب من بين جنبيّ، وراقبت في بلاهة سيارة الإسعاف وهي تتحرك مطلقة صفيرها المنذر بالآخرة والمؤكد لتفاهة الدنيا، وتكأكأت جماعة من الجيران أمام البيت تتبادل أحاديث اعتيادية عن فظاعة الموت

[1] المِحفّة: سرير له ذراعان، يستلقي عليه المريض إبان حمله.

2 العوْلُ: رفع الصوت عاليا بالبكاء.

وموت الشباب بخاصة وكنت أسمعهم ولست لهم بسامعهم، ثم انتحيت في ركن واقتعدت الأرض ملصقا فخذي ببطني وجامعا يديّ على ركبتيّ، فيما أسندت ظهري إلى الحائط وطأطأت برأسي ودموعي تنحدر عبر صفحتي وجهي إلى الأرض. وتساءلت -وما أكثر الأسئلة- أيطوى خالد في سجل التاريخ مثله مثل إنسان العصر الحجري؟!.. وأقبل عليّ أحد الجيران مؤسيا وأنهضني من مكاني وهو يقول:

- وحد الله، اذهب إلى أمك ولا تدعها وحدها في هذه الساعة فهي أشد ما تكون في حاجتك.

فهززت رأسي إيجابا ودخلت عند النسوة بلا قلق أو حياء لأول مرة في حياتي، وجلست بجانب أمي التي تغيرت خلال ساعات معدودات بما تتمخض عنه سنين كثيرة. وما انفك السؤال يطرق جدار رأسي: كيف مات خالد، ولماذا مات؟!.. وتساءلت بصوت مسموع: كيف مات أخي يا أمي؟. فلم تحر جوابا، فجعلت ألحُّ عليها في السؤال وكررته غير مرة فما كان منها إلا أن ازدادت إفحاما بالبكاء، فأقبلتْ إليّ إحدى النسوة ونهرتني وطالبتني بالخروج فصدعت بالأمر في انكسار.

ثم تم الدفن، وانقضت أيام العزاء الثلاثة في سرعة عجيبة، وتلت ذلك أيام عصيبة، وعلمت فيما بعد أن أخي دُهس وهو يوصل بضاعة من البقالة التي كان يعمل بها إلى بيت مجاور تقطنه عجوز شبه عمياء تعيش وحيدة، وعلمت كذلك أنّ الناس قد هرعوا إليه في الشارع وُحدانا وزرافات

فألفوه غارقا في دمائه وقد فارق الحياة على الأثر، فاحتملوه على الأكتاف وأتوا به إلى بيتنا في صدمة عنيفة مزلزلة تغيرت أمي بعدها أيّما تغير، ومع توالي الأيام الحزينة المكللة بالسواد، وتفكيرها الدائب في همومها وآلامها زاد تغيرها إيغالا في نفسها وجسدها على السواء، فصار ديدنها أن تنظر إلى الفراغ لساعات طويلة وهي تقلب حبات السُّبحة بين أصابعها ما جعلني أخشى أن عارضا من عوارض الجنون قد خالط رأسها فداخلني عليها خوف عظيم، وصارت كذلك في كل حين تحتضن ثياب أخي وتذري عليها الدموع[1]، وتعج عجيجا متكررا[2] حتى خُدّد وجهها على أثره بخطين أسودين، وظننت من شدة بكائها أن ماء شؤونها سينفد[3]، بل أن روحها تسيل بالبكاء لا دموعها فحسب! وهزلت كثيرا وشحب وجهها وتساقط معظم الشعر من ناصيتها، وغزا الشيب فوديها في سرعة رهيبة.

ويوما زارتنا العجوز الضريرة التي كان أخي متجها بالبضاعة إلى بيتها - ساعة موته- تقودها فتاة خّمنت من عمرها أنها حفيدتها، وكان ذلك أن سمعت طرقا على الباب ذات يوم، فابتدرته وفتحته، فألفيت عجوزا وفتاة لديه، ولما تساءلت عن شأنهما عرفتني العجوز بنفسها وأخذت رأسي بين يديها وجعلت تقبلني وهي تبكي وتنشج[4]، وتأثرت لحزنها كثيرا وقدتها إلى

---

[1] تسيلها.

[2] يعج عجيجا: يضج صوته بالبكاء.

[3] الشؤون: مجاري الدمع في العين.

[4] النشيج: غصة الحلق بالبكاء.

غرفة الأضياف وناديت على أمي فأقبلت مرحبة بهما، وجلستا تتبادلان الحديث بين تعزية وردّها، وتأبين للميت وتعداد لمآثره، واعتذار وقبوله في تسليم. وكانت العجوز غائرة العينين ينحدر عليهما شعر حاجبيها، ويضيق فوها في زمّ يجعد ما يكتنفه من أديم الجلد، ويرتسم وشم أخضر على هيئة خط من شفتها السفلى ويمرُّ بجميع ذقنها كشأن عجائز ذاك الزمان، فيما كانت تلفُّ رأسها بطيلسان أخضر[1]. والحق أنّي لم أر في حياتي إيمانا وتسليما كما رأيته من تلك العجوز، ظهر لي ذلك في كلامها ودعائها وتسبيحها الذي لم ينقطع حتى فارقت البيت، وفي إمساكها للدمع المترقرق في عينيها شبه العمياوين، وفي حنوّها العاطفي والرقيق على أمي، ولما انتهت من واجب العزاء غادرت كما أتت بلطافة وخفّة، وخرجت من المنزل وهي تستند بيد على ذراع حفيدتها وبالأخرى على إطار الباب، وتأملتُ ظهرها وهي تولّي موسوسة بذكر الله والدعاء للميت وكان ذلك آخر العهد بها. أجل لم أدر عنها شيئا عقب ذلك حتى اللحظة، وإني أظنها اليوم تحت الثرى شأنها شأن أخي العزيز. ترى لو قدر لي أن أفتح قبره اليوم فماذا سأجد من مخلفات جسده؟!.. هل تحلل بالكامل وانسابت ذراته في جسم التربة؟!.. هل يكون مرجع مادة الطعام الذي أصبته أمس من خضار ونحوه إلى جثمانه الحبيب؟!..

[1] الطيلسان: شال، وشاح.

وأعقبت زيارة العجوز أيام مؤلمة بحق لم أر أمي فيها إلا باكية في صمت، أو ضامة ملابس الراحل إلى صدرها وهي تغرقها بدموعها ومخاطها، ثم أخذت تبرأ قليلا وتتأسى بزيارة الجارات أو استقبالهن وبخاصة مع وصول فصل الشتاء الذي يختلط نهاره القصير بعتمة مغربه المتعجلة، ثم ألفتْ حقيقة موته إلى حد ما وإن كانت تبكيه بين الحين والحين. أما أنا فقد انعكست وفاته عليّ بعزوفي عن كل شيء، وبخوف من الموت عقلني عن أداء أيّ واجب فيما عدا واجباتي الدينية -الصلاة بخاصة- أن يباغتني الموت في ساعة غفلة، ثم ألفتُ الحال كذلك فجعلتُ أتهاون في أداء الصلاة، وكنت قد رسبت في العام الدراسي لتقصيري في الدراسة بسبب حالتي النفسية فاضررت أن أعيد العام وجاوزته بشق الأنفس، ولم أجد نفسي فيه إلا مَسوْدا من طلبة الفصل على رغم كبر سني نسبة إليهم، فضلا عن أنّني لم أتخذ صديقا إلّا حكايات أمي وذكرياتها عن أخي في ليالي السمر ونحن نتحلق المدفأة في البيت ونصطلي[1] بنارها، وكنا نذكر عنه خيالات في حزن وأسف، ثم يسوقنا الحديث إلى مصيره بعد الموت ومن هنا تنسج أمي أساطير -وربما حقائق- عن تزاور الأرواح فتطمئن وتطمئنني معها إلى أنّه يتأسى في وحشته مع أبي، وكنت أنا أصدق كلامها وكان ينفذ إلى روحي بغير تكذيب كما ينفذ غسق المغيب في نور مجتنح الأصيل[2].

[1] يصطلون النار: يستدفئون بها.

[2] مجتنح الأصيل: آخره.

8

وصرت معيل البيت بعد وفاة أخي، وتدهورت حالنا المعيشية فجعلت أعمل في سوق للخضار موفقا عملي مع دراستي الثانوية ما كان يعوق قدرتي على الدراسة أو حتى في الذهاب مبكرا إلى المدرسة، فاحتلمت لذلك توبيخ المعلمين دون أن يلقوا لعذري بالا أو لظرفي أذنا مصغية، بل اتهمني بعضهم صراحة بالكذب، وكثيرا كذلك ما وُبخت من ربّ العمل لأسباب تستحق وأخرى لا تستحق، وقد عانيت في العمل معاناة بليغة تمثلت في فظاعة آلامي الجسديّة التي كنت أستشعرها بحق عند إيابي إلى البيت وخلودي إلى الراحة، كل ذلك كان يجري في عالم يتغنى بحقوق الأطفال! وكنت أعود كل يوم أحمل في جيبي أجرتي البالغة خمسة دنانير لا غير، ولم أكن أنفق منها شيئا أبدا وإنّما كنت أسلمها لأمي التي أخذت تسوس البيت في حرص وتقتير، ثم كان أن أقبلتْ سنة الثانوية العامة، فتركتُ العمل مع انتصافها بعد إلحاح من أمي شديد، وأقبلتُ على مقرراتها الأكاديمية أعالجها ساعات طويلة بأناة وترو ٍ ولكنني عانيت كثيرا من غياب التركيز، وكانت أمي كل حين تدخل عليّ الحجرة بكأس عصير طبيعيّ أو صحن فاكهة فتراني منشغلا بشيء آخر فترفع صوتها موخبة إياي

فيحتد النقاش بيننا، ثم أراها وقد استعبرت، ثم تذكرني بأنّها تريد أن تراني إنسانا ناجحا، وبأن الشهادة سلاح المرء في هذا الزمان وبأنّه لا يساوي شيئا بدونها، ثم تعرّج في الحديث على ذكر أخي وتقول إنّه لو لم تعاجله منيته لكان الآن في السنة الثالثة من الجامعة، فترجوني عند سيرته ألّا أخيب لها رجاءً، وعند هذا المنعطف من الحديث كان دمعها يسيل على خديها ويأخذ صدرها بترجيع الشهيق فتنفك عنّي، وكنت عندها أحس نحوها بحزن غير قليل.

وبرغم ما عانيته في سنتي تلك إلّا أنني نجحت في امتحان نهاية العام الوزاري بمعدل مئوي بتصنيف جيد ولكنه لا يكفي لالتحاقي بالجامعة في تعليم تنافسي فكدت أفقد الأمل في مواصلة حياة الجامعة التي رغبت فيها شديد الرغبة؛ لما سمعته من اختلافها عن المدرسة إذ يغيب فيها الطلبة المتنمرون، ويختفي عقاب المعلمين، وكذلك فإنّ الطالب يعد فيها حرا بمغداه ومراحه. ورغم عوزي لم أعدم أن أجد محسنا يتكفل بنفقات دراستي، فجعلت أمي تستشفع عند هذا وذاك من الناس ولكن دون جدوى، ثم لم تعد تذكر دراستي بحال من الأحوال؛ فشعرتُ بأنها فقدتْ أي أمل في إتمامي للتعليم، وقلقت لذلك فابتدرتها في مساء يوم مستفسرا عن جديد الأمور، فما كان منها إلى أن سلمت بالواقع في مرارة قائلة بأسف: "إن التعليم لم يوجد لأمثالنا". فأحنقني ردها ذاك وألححت عليها ألا تكفَّ عن المحاولة، وجعلت أذكرها بضرورة نيل الشهادة وبمكانة

حاملها في المجتمع، وأذلل أمامها العقبات المادية وأقنعها بأنني سأجد عملا أوفق بينه وبين دراستي، وأن أربع سنوات من ضغط كهذا لن تؤثر فيّ شيئا، فهزت رأسها متفكرة وقامت حينها لتعد طعام العشاء.

وذات يوم -بعد أقل من أسبوع على حديثي الأخير معها- كنت جالسا في شرفة المنزل أحتسي الشاي ونظري لا يقع إلّا على جدران الحارات والأزقة المقابلة، وبينا أنا كذلك إذ اصطفت سيارة إزاء البيت على الطوار المقابل، ونزل منها رجل أنكرته بادئ الأمر لبعد المسافة بيني وبينه ولكنني عرفت فيه عمي بعد ذلك، وأقبل علينا زائرا -وعلمت فيما بعد أن أمي كانت وراء زيارته- ولم يكن قد خطا عتبة بيتنا منذ مأساة أخي، وكان قد كبر في السن فانحنت صدعته[1]، واختفى وجهه في إطار من لحية بيضاء، وانزلقت نظارته على أنف أقنى، ولم أدر بادئ الأمر سبب زيارته ولكنني استقبلته في ترحيب خليق بأن يَصْدر من صدر مغلق على رغبات في الحب والحنان، ودخل البيت يتوكأ على عصاه ويتقدمه عطره الذي لم يغيره تقدمه في العمر، وجلس في صدر المنظرة وهو يقلب عينيه في جوانبها وسقفها وأثاثها ومتاعها، وأقبلت أمي مرحبة به، ثم طلب إليّ أن أجلس معه لأنّه يريد محادثتي بشأن هام بحسب قوله، فجلست على كنبة إلى يمينه وأنا أخمّن

[1] انحنت قامته المستقيمة

موضوع حديثه، وذهبت أمي لتحضر الضيافة وهي تنظر إليه بعين ملؤها الأمل والرجاء، وبعد أن استفسر عن حالي بتقليدية قال:

- أصِخْ السمع يا عم، فعندي كلام مهم سوف تتمحور حوله حياتك كلها، وفيه مستقبلك وأمانك بل وأمان والدتك كذلك.

ثم تنحنح وبصق في منديل استخرجه من جيبه ورده إليه على الأثر، وكنت في هذه اللحظات أتأمل شامة عند أصل أنفه الأيمن لم أرها من قبل، وقال مواصلا:

- سعدت حقا بنجاحك في الثانوية العامة، وأطلعتني أمك على رغبتك في مواصلة دراستك ولكن مجموعك المئوي يحول بينك وبين ذلك، والحق يا عم أنّك لا تملك فرصة في الالتحاق بأية جامعة إلّا إذا درست على نفقتك الخاصة وهذا ما لا يمكن في ظل ظروفكم الراهنة، والرأي عندي أن تتجه وجهة أخرى ملائمة وممكنة تتيح لك مصدر رزق حسن ولا تتكلف معها ما لا تطيقه.

فتأهبت للاستماتة على حلم دغدغني كثيرا في الآونة الأخيرة، وقلت:

- لا عليك يا عم، أستطيع أن أعمل وأدرس معا وبهذا أؤمّن نفقات الجامعة ومصروفي الشخصي.

فنهرني في عصيبة واضحة قائلا:

- أتظن أيّها الغرّ أنّ الأمر بهذا اليسر؟ أما تدري أنّ الدراسة الجامعية في بلدنا هذه تستنزف الدم وماء القلب لا الجيب فحسب؟!..

وصمت منكّسا رأسي، وأخذت عيناي تلتمعان بالدموع، ويبدو أنّ كبر سنه قد رقّق من طبعه فقد سكت قليلا لما رأي مدامعي، وظل ساكتا حتى هدأت ثائرته، ثم واصل حديثه متلطفا فيه ما أمكن:

- يابن أخي، عزيز عليّ أن يحول بينك وبين رغبتك في الدراسة الجامعية حائل، ولكن حقا ما باليد حيلة، ولو أردت فرضا أن تدرس في كلية من كليات المجتمع -ونفقاتها محتملة إلى حد ما- أوتظن أنّك ستحظى بوظيفة تبعا لشهادتك منها؟!.. طفْ في بيوت الأردنّ جميعا وسوف تجد بيتين من كل ثلاثة تتزين جدرانهما بشهادات الدرجة الجامعية الأولى فما بالك بمن يحمل شهادة أدنى كالدبلوم؟!.. ثم أتظن أنّ سوق العمل -وإن اشتمل على بضعة شواغر اليوم- سيظل على حاله بعد مدة دراستك التي ستمتد إلى نحو سنتين أو ما يربو على ذلك؟ استمع إليّ ففي كلامي ما يفيدك ويريحك من عناء لا طائل وراءه.

ودخلت أمي تلك اللحظة تحمل صينية الشاي وهي تتفحص وجهينا باستفهام مشوب بقلق، وقدمتْ لعمي الشاي فتناول كأسه ورشف منها رشفة ثم وضعها أمامه، واستطرد يقول وهو يرتكز في جلسته على عصاه:

- الأليق بك يابن أخي أن تنخرط في سلك الحياة العسكرية منذ الآن، ففيها الأمان الوظيفي فضلا عما سوف تتمتع به من مزايا مختلفة ومتعددة كالتأمين الصحي والمرتب الجيد، وسأستشفع لك بمعارفي في سلك

العسكرية وستكون شرطيا أو جنديا خلال أشهر قليلة فقد فتح باب التقديم منذ نحو يومين، فماذا ترى؟

وحاولت أن أفتح فمي لأعترض ولكن عقلني العجز في التعبير وأرتج عليّ[1] فلم أدر ما أقول، وكم ضاعت أحلام وكم صوحت آمال من هذا العجز! وضرب عمي الأرض بطرف عصاه كأنّه بهذه الضربة يبتر حبل النقاش، ثم أتى على كأس الشاي وما فرغ منها حتى قام مستأذنا بالذهاب، ومد يده إلى محفظته واستل منها ورقة من فئة العشرين دينارا وناولها لأمي التي رفضتها أولا بوازع من الحياء ولكنها أخذتها بعد ذلك إذعانا لإصراره، ثم شيّعته إلى الباب وهي تحدثه بصوت وطِيْءٍ -وكم حنقت عليها حينها- وعادت إليّ وجلست معي وجعلت تحدثني عن حسن ما اختاره لي من سبيل، وما هالها إلّا تأرجح الدمع في إنسان عيني[2] فنعتتني بالفتاة المدللة، فصرخت بصوت عال رافضا لواقع مخالف للتصورات والآمال، أجل صرخت رفضا لأول مرة في حياتي في وجه إنسان لا عن تغير طارئ في طبعي، ولكن عن ألفة لذاك الإنسان ومعرفة بحنان صدره واتساع أفقه، وفررت إلى غرفتي وأنا أصرخ برفضي المطلق للعمل العسكري وأتأبّى إباءً، فما كنت أتصور أن يكون في طوقي احتمال لما سمعته عنها قبلا من حزم وشدة وتدريب مرهق وغياب عن البيت يطول لأيام وأسابيع، فضلا عن

[1] أرتج عليه: استغلق عليه في الكلام.

[2] إنسان العين: سوادها.

خشونة الملبس والمأكل وبرد الليالي في الصحراء طيلة أشهر التهيئة والإعداد.

وعشت بعد ذلك يومين في هم وكدر يأكلان القلب، ثم كان أن أخبرتني أمي بأن عمي سوف يأتي ليصطحبني إلى الفحص البدني في بحر نهاية الأسبوع فذعرت أيّما ذعر وقلقت حتى منتهى القلق، وأزمعت الرفض القاطع لذهابي معه ولكن إصراري تلاشى أمام هيئته الوقور حين وقفت أمامه كما تتلاشى الغيوم من أديم السماء في اليوم المشمس.

وبلغنا موقع الفحص، وجرت خطوات الفحص في تقليدية بين عسكري وآخر من فحص الدم إلى فحص النظر، ثم راعني أن طلب مني عسكري بجفاء ومجموعة من الفتية أن ننزع ملابسنا وأن نبقى بالداخلية منها، ولم أستطع بادئ الأمر أن ألبي ما طلب بسبب حيائي غير المحدود، ولكنني ذبت في ضمير جمعي حينما رأيت الجميع قد نض عنه ملابسه في جو الحجرة الخانق الذي ما لبث أن ازداد تعكيرا بروائح الأقدام والعرق، وتمت أجزاء الفحص أخيرا فعدت إلى حيث كان يجلس عمي، وسألني عما حدث معي في غيبتي فأجبته بما كان متحاشيا ذكر المحرج من الأحداث، ثم قال لي إنه لم يبق إلّا إجراء مقابلة سريعة مع ثلة من رجال السلك العسكري سيتحدد بناء عليها إذا ما كنت مرشحا للقبول من عدمه، فجعلت أزدرد ريقي في قلق قتّال فما كان أصعب عليّ أن أقف حيال نظرات تتفحصني، ودون

ذلك خرط القتاد[1]، وحتى في أيام المدرسة كثيرا ما نالني التوبيخ من المعلمين لإخفاقي في الإجابة عن سؤال أو في سرد معلومة، لا عن جهل مني بها ولكن لعجزي عن الوقوف في مرمى أنظار الطلبة.

وفي صمتي القلق تناهى إليّ اسمي عبر مكبر الصوت، إذن فقد حان دوري، ولا أدري كم لبثت حقا ولكنني أعلم أن الخوف والقلق جعلا حدود الدقائق فضفاضة، وشجعني عمي فقمت وأنا لا أملك الخطو أبدا، ودلفت صالة قوراء[2] تظلل نوافذها ستائر حمراء مسدلة عليها حتى الأرض، ويجلس خلف طاولة تقوم في أقصاها رهط من الرجال ذكرني أحدهم بزوج أمي السابق لا أدري لماذا، وطلبوا إليّ أن أعرف عن نفسي فرددته في صوت خافت، فأنزل أحدهم -وكان فظا غليظا شائب الرأس والحاجبين ينتهي وجهه بلغد كبير[3]- نظارته على أنفه ونظر إليّ من فوق حافة إطارها العلوي وهو يمسك طرفها بيسراه، وقال بصوت واضح قوي النبرة:

- عرف بنفسك وارفع من صوتك فأنت رجل في حضرة رجال.

فأذعنت لطلبه دون تعليق وصدري يرتفع ويهبط في توتر، ولم يكن صوتي في المرة الثانية بأعلى منه في الأولى، فجعل الرجال الأربعة يتغامزون ويتضاحكون مما زاد ارتباكي، فعاد الرجل ذو النظارة يقول:

---

[1] القتاد: شجر شوكي. خرط القتاد: إزالة شوكه. ودونه خرط القتاد: كناية تقال للأمر الصعب.

[2] قوراء: واسعة

[3] اللغدُ: لحمة بين الحنك وصفحة الرقبة.

- هل حقا تريد أن تصبح جنديا يحمي البلد؟ يا فرحة أمك فيك!

وقال آخر:

- «عمو» إذا ما قبلت غدا عسكريا فسوف تبيت بعيدا عن بيتك لأسابيع، فماذا أنت فاعل حينها؟ ادنُ منا وارفع عقيرتك بلا خجل فليس ههنا من مبرر له.

فدنوت وأنا أتعثر بأذناب الخجل، وفطن أحدهم إلى مشيتي التي كانت تتلكأ في عرج بيّن ناجم عن الحياء والخجل، فسألني «مالك تعرج؟» فأجبت بأنني سقطت على قدمي اتفاقا، ولكم تمنيت في تلك اللحظة أن أجلس على أليتيّ متقوقعا وأذوب في ظلام لا يستبان معه شيء من ملامحي! ثم جعل الأربعة يسألونني أسئلة مختلفة أجبت عليها عفويا إلى حد أنني لم أذكر بعدها بماذا أجبت، وأخيرا طلب مني أحدهم أن أنصرف وهو يهش لي بكفه كأنما يهش ذبابة حقيرة، فخرجت داخرا[1] واتجهت إلى عمي وأفضيت إليه بجملة حالي في مراوغة عن المزريات[2] من الأحداث، فاتجه إلى حجرة تقع في أقصى الباحة ولبثت في انتظاره غير قليل، ثم عاد متغير السحنة يضرب كفا بكف، ويقول:

- الله يعوض علينا، أفتاة أنت؟!.. سقطت في المقابلة فما سبب ذلك؟ وافضيحتاهُ من الناس إذا ما سألني سائل عن سبب سقوط ابن

1 صاغر، ذليل.

2 المزريات: المخجلات.

أخيك في المقابلة، أيكون جوابي العجز والحياء المفرط؟!.. لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

ونفخ في غيظ ثم أدبر صوب الباب وأمرني أن أتبعه من خلف ظهره فتبعته في صمت مطبق، ولما صرنا في السيارة ظل صامتا بدوره حتى شارفنا على الوصول، فقال ساعتئذ:

- أعانني الله على تحمل مصاريف دراستك، ولكن لا تظنها هبة فسوف تردها إليّ حينما تعمل.

فجذلت بقوله جذلا لا مزيد عليه[1]، ولأول مرة في حياتي شكرت الله على عجزي وحيائي!

1 جَذِلَ: فرح.

9

ورافقني عمي ذات صباح -بعد نحو إسبوع- إلى وحدة القبول والتسجيل في الجامعة الأردنية في سبيل تقييدي طالبا على مسار التعليم الموازي، ولم تكن ثمة خيارات كثيرة أمامي لدراستها بسبب من مجموعي في الثانوية العامة، وطرحت تخصصات تعد ثانوية في نظر القائمين على التعليم مثل التاريخ واللغة العربية والجغرافيا وعلم النفس، ولم يطل المطال بنا في نقاشنا أنا وعمي حتى اخترت اللغة العربية فتمت على الأثر إجراءات تقييدي طالبا في قسمها، والحق أنني لا أعلم لم جاد عمي عليّ بمصاريف الدراسة ولم كلّف نفسه عناء السير فيما سأختاره لمستقبلي؟ وربما يكون ذلك -بحسب قول أمي لاحقا- رغبة متاورية داخل صدره في تكفير إحساس دفين بالذنب لقريفته في حق والدي من قبل[1]، وعلى أيّة حال لم أخض في تفسيرات وتخمينات لتبرير فعله فقد كنت من الفرح في غاية، وسأذكر يده عندي وما دلّ به عليّ ما حييت. ولقد ظللت طوال الفترة التي سبقت بدء العام الجامعي في شوق وتحمس حتى لقد فكرت غير مرة في زيارة الجامعة، وكنت كثيرا أحدث أمي في شأنها ونتبادل أمنيات

[1] قريفته: الذنب الذي اقترفه.

وتوقعات وآمال وأحلام، ومرة طرق الحديث بابها فاستذكرتْ أخي متنهدة، وقالت:

- لو كان أخوك حيا ودخل الجامعة لكان الآن قد تخرج فيها ووظف بعد ذلك، بل ربما تزوج وأنجب أطفالا صرت لهم جدة.

وذرفتْ دمعة وحيدة من عينها اليسرى سالت حتى قطرت من الذقن، فجعلتُ أهون عليها ما استطعت سبيلا ووعودا من قبيل أن أعوضها ما فاتها في الدراسة والعمل والزواج، وأن أتزوج زواجا ميمونا[1] وأنجب أولادا تكون لهم خير جدة، وقلت مسرّيا عنها بأنني مهما أنجبت من أبناء ستظل هي الأحبّ إلى القلب، فتنهدت ضاحكة مستبشرة.

وتتابعت الأيام، وحان موعد بدء العام الجامعي فأقبلتُ على أيامه الأولى بلهفة الظمآن إلى ديمة القطر، وسرتني حياة الجامعة التي عاصرتها بادئ الأمر سرورا كبيرا، فقد بتُّ حرا في ذهابي وإيابي وغدوي ورواحي، ولم يكن ثمة نهر ولا ضرب وإنّما تلقين ممل ولكن على وجه محتمل، ولم يعد ثمة زملاء متنمرون ولكن طلبة في ثوب الرجال، وطالبات في قالب النساء وهذا الأمر الأخير ما راقني في حياة الجامعة حقا، فقد كان لوجودهن كبير الأثر في فكري ومزاجي كأنهنَّ السحر الذي ينفذ إلى الأعصاب غير أنه سحر معذّب مؤرق، ولطالما منيت النفس بالظفر بصحبتهن ولطالما طالعني بنظرات خلتها -لغبائي وجهلي بشؤونهن- نظرات حب وإعجاب، والحقيقة

1 الزواج الميمون: السعيد الموفق.

أنّي لم أر نفسي وسيما جذابا للجنس الآخر إلا في القليل من المرات التي كانت تزورني فيها دفقات ثقة ناتجة عن نظرات أو بسمات تنالني، ولكنها لم تكن لتأتي حتى تتداعى إذا رأيت انعكاس وجهي في المرآة، فقد كنت رَبْعَة إلى الطول أقرب، أنزع الرأس على صغر سني[1]، غليظ الأنف كبير الشفتين خصوصا شفتي السفلى التي كانت تتدلى كأنها مشدودة إلى أسفل، فكان ذلك جميعا أسبابا موجبة للخجل والحياء، ودونها ما جبلت عليه من ضعف الشخصية وانعدام الثقة بالنفس، لذلك لم أكن أجسر على محادثة فتاة أو حتى أن أنظر في عينها فضلا عن التحديق فيها، ولطالما حاولت أن أروض نفسي على اعتياد الأمر ولكن دونما جدوى، وكنت إذا أردت أن أعبر لفتاة ما رأيتها غير مرة عن إعجابي بها اصطنعت لدى رؤيتها ملامح الدهش كأن تلتقي أعيننا لبارقة سريعة فأعطف وجهي لشطر آخر ثم أرده إلى وجهها كأنما تفاجأت برؤيتها، وكنت أؤدي ذاك الدور الهزلي بسرعة خاطفة لا تعد الثواني القليلة، وكثيرا ما فعلت شبيها له من السخافات، وكثيرا ما أعجبت بفتيات مختلفات حيث كنت أنتقل لإعجاب واحدة إذا يئست من وصال الأخرى حتى كان من أمري شأن عجيب في يوم مشمس من أيام الجامعة؛ كنت قد سجلت في الشطر الثاني من السنة الجامعية الأولى مساقا متطلبا لطلبة كلية الآداب على اختلاف

[1] أولى مراتب الصلع، وهو انحسار الشعر عن جانبي الجبهة.

تخصصاتهم وهو مساق فلسفة العلوم الإنسانية إضافة إلى غيره من المساقات، ولم أكن أعرف شخصا ولا كونت صداقة قط مع طالب من الطلبة لذلك كنت أروح إلى الجامعة وأغدو منها وأتنقل ما بين المحاضرات في وحدة غريبة بين جموع من الطلاب الذين كنت أشعر بأنني أنتمي إلى جنس غريب عنهم، وكانت أحلامي في دخول علاقة عاطفية مع فتاة جامعية لم تزل تراودني وتجذبني بلا هوادة، وكنت أرنو إليها كما يرنو التائه في القفر إلى سديم السراب، أو المحترق تحت أوار الهاجرة إلى ظلال أفنان الدوحة الوارفة، وجعلت أسوق لنفسي -الواعية وغير الواعية على السواء- أحلاما وردية من حب ووصال وما يعقبه من زواج وأسرة وأفراح ومسرات، وأوهمُا بما لا يوجد وبضرورة ما لا ضرورة له من الأفعال، فتلبستني حالة غريبة من حالات الوهم المستعصي حتى أنني كنت أمثل - إذا ما خلوت إلى نفسي في البيت- أدوارا من الحب والهيام وما يتطلبه من أفعال جرئية إزاء المحبوب الذي لم يكن له وجود بعد إلّا في منى أحلامي، وعدوت ذلك إلى استحضار المسرح الذي أريد للحدث الذي أريد، إذ كنت أتصور نفسي مغنيا عذب الصوت يغني في مدرج من مدرجات الجامعة إذا ما سمعت أغنية راقتني أو نال صوت مغنيها إعجابي، أو عازفا أو عوادا في حال سماع معزوفة أو ضرب على العود، أو قارئا للقرآن يستفتح بصوته الملائكي حدثا هاما أو محاضرة علمية قيمة، وكنت دائما -على اختلاف الحالة التي أتخيلها- أستحضر بين الجماهير كل فتاة أُعجبت بها أو مال

ميزان قلبي إليها. وكانت محاضرة فلسفة العلوم الإنسانية تبتدئ في الثامنة صباحا، ومرت محاضرات الأسابيع الأولى منها في صورة روتينية تقليدية كشأن المواد جميعا، وكان أستاذها كبيرا في السن إلى حد ما، دائم الغضب على الطلبة إذا لم يجيبوا على سؤال كان قد أبان موضوعه في محاضرة سابقة، ومرة سأل سؤالا عاما عن التطور التاريخي للفلسفة كنا قد تناولناه في المحاضرة المتقدمة إلّا أنّ أحدا من الطلاب لم يحر جوابا، ولحسن حظي ذكرت بعضا من أطراف الجواب فلملمتها في شجاعة لم تؤاتني قط من قبل، ورفعت سبابتي مستأذنا ففرح بي وأذن لي؛ فأجبت إجابتي في حرج فمدحني مدحا طيبا فرحت له رغم أنّه أسبقه بقوله إن الإجابة غير دقيقة تماما، وعلى كل فقد خلت نفسي متفوقا بين الطلاب وخلت أنظارهم تتفحصني فداخلني خجل وارتباك ممزوج بشيء من الزهو، ثم كان أن وصلت المحاضرة يوما متأخرا عن موعدها قليلا فوقفت في الباب أملأ فراغه في تصنع جنوني، واستأذنت المدرس في الدخول غير أنّه أهملني بغرابة وفي إعلان صريح عن كرهه للتأخير، فدخلت على قدر غير قليل من الحرج وأنا أحدق في الفراغ فوق رؤوس الطلاب، ثم حدث - وأنا أتجه إلى مقعدي- أن عطفت بصري إلى فتاة فرأيتها تنظر إليّ نظرة ظننتها لوهلتها الأولى ذات علق[1]، ولكنني بعد ذلك استحلت المبدأ العقلي

[1] أي نظرة بعين المحبة.

العاطفي الذي استنبطته في شأنها معي، ورغم ذلك كله صار يحدوني إليها بعد ذلك شوق غريب يسوقني سوقا لا قبل لي بدفعه، ويشدني شدا لا قدرة لي على احتماله، فكنت أرجو كثيرا أن أصل حياتي بحياتها في يوم من الأيام، وجعلت كثيرا أتردد -بقوة لا أدري كيف واتتني- على مواضع وجودها في أكناف الجامعة، وأرنو إليها من حيث لا تراني، أو أقترب منها حيث كانت بين الحين والحين، ولم تكن هي تأبه وجودي أو هكذا ظننت، لذلك باخ حماسي مع مرور الوقت وحل محله يأس قتّال من أن يستجد جديد فتجاهلت شأنها معي في تسليم. ثم تواترت الأيام على حال واحد كأنّها يوم واحد، وأقبلتْ امتحانات نهاية الفصل الدراسي وأدّيتها جميعا حتى جاء دور امتحان الفلسفة، وأذكر أنّني في يومه تأنّقت في ملبسي، ورجلت شعري على صورة حسنة، ووضعت من الطيْب أزكاه للأنف، وبكرت في ذهابي إلى الجامعة ودخلت قاعة الامتحان قبل معظم الطلاب، وفيما أنا جالس أستذكر معلومات الامتحان إذا بالفتاة نفسها تدخل القاعة في رقة وخفة كأنّها ظبية، والتقت عينانا لحظة ولكنني سحبتها كمألوف عادتي إلّا أنّي خلتها وقفت بالباب لا تتلحلح عنه فعاودتُ النظر إليها، وما التقت عينانا مرة أخرى حتى ابتسمت لي ابتسامة عذبة صافية كشفت عن أسنان نضيدة كأنها حبات اللؤلؤ المنضود، وسقط على إثرها قلبي من صدري فجذبت بصري في حياء وأغضيت طرفي عنها[1]، في حين خيل إليّ أنّ

[1] أغضى عنه طرْفه: حوله عنه.

للمقاعد عيونا ياقظة تحدق فيّ، ورغم ذلك جعلت ألحظها ولم يكن حالها بأفضل من حالي فيما يبدو جراء سخافة رد فعلي، إذ جعلتْ تتفحص الفتيات الأخريات اللواتي كنّ في القاعة في ارتباك بيّن وحرج واضح، ثم جلستْ على مقعد مواز لمقعدي فيما وراءه بصفين، فنغزني شاب كان يجلس بجانبي هامسا في أذني باستغراب:

- ماذا فعلت معها ولم تجاهلتها على هذه الصورة؟

فلم أشأ أن أطلعه على ما يكنّه صدري من خجل، فقلت في سذاجة:

- أريد أن أمارس الثقل حتى تذوب بي حبا أكثر، صدقني هكذا هنّ الفتيات.

فابتسم ابتسامة ساخرة وقام من مكانه واتجه نحوها وأعطاها ورقة تحوي أسئلة هامة عن مادة الامتحان؛ فاعتلاني غيظ كتمته في داخلي تمثل في صريف نواجذي، ولحسن حظي أن الفتاة -المحبوبة منذ اليوم- لم تباله إلّا بكلمة شكر عفوية وما كان أشدّ فخري في ذلك! ثم ازدحمت القاعة بالطلبة ذكورا وإناثا وحضر المدرس وابتدأ الاختبار ولم أستطع تركيزا ولا إعمالا للفكر فقد انشغل الفكر بما هو أهم وأجل!

وأنهيت الاختبار بعد نحو ثلاثة أرباع الساعة، وخرجت قبل الفتاة والتفتُّ إليها ولما أزل في القاعة فرأيتها تنظر إليّ وأنا أمشي بين صفوف المقاعد، وصمَّمتُ وأنا خارج على محادثتها فور خروجها فجعلت أنتظر عند باب الكلية وأنا أتقلب على جمر من التردد والخوف، ورحمني طالب من

الطلبة إذ أقبل عليّ وأنا في انتظاري العسير المرهق وجعل يستفسر مني عن بعض إجابات لأسئلة الامتحان ففرحت بمبادرته بالحديث معي، ثم رأيت محبوبتي تخرج في صحبة فتاة وهما تتحدثان، وما أن رأتني حتى انتبذت ركنا قريبا مني هي وصاحبتها وجعلتْ ترنو إليّ، فلم أقو على النظر إليها إلّا خطفا، وساءني أن تكون بصحبتها فتاة فقررت -كعذر أتعذر به وأريح به ضميري- أنّني لن أحادثها أبدا، ومرت دقائق طويلة في عذاب متصل شعرت معها بمرار في الفم، ويبدو أنّها يئست مني فاتجهتْ مغادرة صوب المخرج الرئيس للجامعة وأنا أشيعها بناظريّ.. رباه لماذا كتب على الرجل أن يكون المبادر؟!.. ألم يكن ممكنا أن تقبل عليّ هي بضحكتها العذبة الحلوة التي لم أر أجمل منها وأن تبادلني حلو الحديث؟!.. ولكن هيها فعلت حقا فهل أقوى على المثول بين يديها ومحاورتها محاورة الحبيب للحبيب؟!.. رباه إنّي أذوب حنينا إليها، وأحترق يقينا من عجزي عن الحب ومن العلم الراسخ بأنه لم يخلق لأمثالي، ولكنّ بسمتها الوضيئة لي أضرمت في قلبي أشواقا وآلاما!

* * *

وجاءت إجازة نهاية العام الدراسي، وانصرمت أيامها وأنا من الشوق في غاية، ثم أقبل فصل الدراسة الصيفي ففرحت بمقدمه فرحا شديدا على قصر مدته واشتداد الحرارة خلاله، ولما آن أوانه وبدأت أيامه أقبلت على الجامعة في شوق وخوف، وجعلت أجوس خلالها باحثا بين كل فتاة وأخرى عن طيف محبوبتي، وكم كانت خيبة أملي كبيرة حين غادرت الجامعة

يومها وأنا لم أرها فيها! على أن تلك الخيبة لم تخل من ارتياح نفسي خفي امتزجت به، ثم كان اليوم الثاني ولم يكن حاله على خلاف الأول، وكذا الأسبوع الأول وما تبعه من أسابيع أيقنت خلالها أن الفتاة لم تقيد أي مواد في هذا الفصل، ونقمت عليها لذلك وكأنّها ارتبطت بي بوثاق من الحب جراء بسمتها التي لا تنسى. وكان من شأني بعد ذلك أن كونت علاقات صداقة قليلة ومتحفظة مع بعض شباب الحي فضلا عن صديقي الذي التقيته يوم امتحان الفلسفة والذي كان مسجلا معي في مادتين في فصل الصيف، فجعلت أحدث هذا وذاك عن شأني مع الفتاة في خيلاء، وكانوا يمدونني بنصائح لم أعتقد يوما أنني سأجسر على القيام بها.

وانتهى فصل الدراسة الصيفي، وتلته إجازة الصيف فبرّح بي الشوق، وتجمعت أفكاري طوال مدة الإجازة في زواجي! أجل لطالما كان الطموح اللامتناهي شعارا رفعته في وجه عبثية الحياة، ولن يشقيني إذا ما تخرجت ولن يحول بيني وبين الوظيفة ومن ثم الزواج من محبوبتي شيء، أو هكذا خيّل إليّ خيالي المريض، ولم تكن دفقات الطموح تلك تزلزل إلّا إذا قدرت بالحساب المصاريف التي أحتاجها من لدن تخرجي وحتى زواجي وما يستلزمه ذاك التقدير من أيام وسنين، ومع ذلك صرت أراني وقد ارتبطت بها بوثاق متين حقا فأتخيل نفسي مادة أفكارها وخواطرها اليومية، وموضع حديثها مع أسرتها وصديقاتها، بل وخطيبا لها تحلو لنا الهدايا والنزهات، ثم زوجا وقد شبكت يدي بيدها وقدتها -بعد زيارتنا لأمي- إلى

بيتي؛ فصرت أدعو الله كثيرا أن يسهل لي الدرب وأن يفتح مغاليق الأبواب، وأن يجمعني بها في بيت واحد في القريب العاجل، وأقبلتُ عليه بروحٍ ظمآن وقلب ملهوف، وواظبت على الصلاة مواظبة تامة لم أنقطع معها عن فرض من الفروض، ولم أعد أنظر إلى الفتاة إلّا نظرة عاطفة وحب وإخلاص ورغبة تسمو عن الغرائز البشرية، ولا أنكر أنني شعرت إزاءها بعاطفة مشوبة بالشهوة في أوائل أحداثي معها، ولكنّ يأسي من الحب ورغبتي فيه أحالا نفسي إلى جمرة متوقدة من الأنّات والرغبات العاطفية الخالصة.

ثم افتتح العام الدراسي الجديد ولم يكن الشوق فيه بأقل مما سبقه، ولكنّه كان شوقا لشيء بعيد المنال كالمتطلع إلى الأفق، وانتظم دوام الطلبة فجعلت أحوم في الجامعة -على اتساعها- في بحث مضن للأعصاب، حتى كان أن رأيتها تحادث صويحبات لها لدى بوابة كلية العلوم الإنسانية، وقد صبغت ذؤابات شعرها باللون الأشقر وتبدت في حلة أنيقة أضفت عليها خفة ليست من هذه الدنيا في شيء، واستحضرت شجاعتي حال رؤيتها في صورة امتصت رحيق قلبي، ووقفت قبالتها متطلعا إليها بين حين وحين، والتقت نظراتنا غير مرة فابتسمت منها العينان ولكن نفسي خذلتني مجددا وأأسفاه، وعدت أرنو إليها مرات متتاليات من موقفي وقد استحلت تمثالا من خزف وهي تطالعني بطرف ساج كحيل، وما كان أسعدني حين تمالكتُ نظرتي ولم أشح بها عنها حتى فعلت هي! أمدني ذلك حقا بدفقة من

شجاعة غير منتظرة، ثم كان أن انسحبتْ معتذرة من صديقاتها -فيما بدا لي- فهل يا ترى تعمدت الانسحاب حتى تهيئ لي أسبابا للانفراد بها؟!.. هل شعرتْ بخوفي وخجلي فأرادت أن ترحمني بأن تنتبذ موقفا منفردا؟!.. ولكن هل أقوى على أن أوقفها وأحادثها تحت وطأة نظرات الخلق في الجامعة؟!.. رباه إلام تعتصرني هذه الأوجاع المرهقة وتلك الآلام الخبيثة؟!..

وتبعتها وأنا من أفكاري في جنون بلغ منتهاه، وتوقفتْ قليلا وظهرها لي واحتضنت صديقة من صديقاتها مرحبة مستبشرة بها، ووقفتُ في مكاني لا أترمرم، وطالعتني صديقتها باستغراب واستفسار ثم عطفت وجهها إليها وحدثتها فيما يشبه الهمس فأدرات وجهها ناحيتي وهي تبتسم، ثم تركت صديقتها وسارت متمهلة لوحدها فأقنعت نفسي بكفاية ما أبديته تجاهها اليوم من اهتمام. الحق أنني كنت من الارتباك في غاية، وعلى رغم فرحي بالأحداث الأخيرة على قلة فحواها إلّا أنني لم أعدم حزنا دفينا وسخطا مريرا، ولوما حادا للذات رجعت إلى البيت وقد اعتلاني اكتئاب فظيع على أثره. وانصرمت بعد ذلك أيام واأسفاه رأيتها فيها ورأتني غير مرة من دون أن أبدي حراكا أو أتخذ خطوة حاسمة، فازداد يأسي وانقطع من وصلها حبل رجائي. وقابلتُ في نفس الفصل شابا في مادة مشتركة لطلبة الجامعة، وكان الشاب يقطن جوارنا في الحي وقد ربطت بيننا وسيلة المواصلات اليومية، فابتدرني الحديث يوما وتوطدت علاقتنا نوعا، وكان يدرس في كلية العلوم السياسية، ولما ازدادت أواصر الصداقة بيننا نفضت

له جملة حالي مع الفتاة وأريته إياها مرة مشيرا إليها بالبنان إشارة سريعة فقال لي إنّه يعرفها وإنّها تدرس في نفس قسمه، وعرفت منه أن اسمها ريم، وهو من أسماء الغزال فلها إذن من اسمها نصيب!

محبوبتي، ليس كمثلها على الأرض شيء، تنحني الأشجار إجلالا لجمالها انحناء الكاهن على باب معبده! هل يا ترى تحدثني يوما ويسري إلى سمعي -وإلى قلبي على الأثر- صوتها المعشوق سريان الماء في الورد، والنّسغ[1] في النبات؟!.. أليس يكفيني لأوسم بالحرمان انقطاع حبالي من حبالك؟!.. بلى يا أملي، بلى يا عذابي، بلى يا أملي وعذابي معا. وخبريني بالله ما شأن استعار جنوني حينما أراكِ وأنت تخطرين على القرب مني على رغم أن ما بيني وبينك كما بين الأرض والسماء؟!.. أهذا ما يسمونه الغيرة أم هذا هو الحرمان؟!.. دعينا من شأنهما الآن فأنت أرفع -أيها الملاك- من أن تستنزلي من سمائك إلى أوحال عذابات المشاعر الإنسانية، وخبريني بالله أبشرتك مقطرة من وحي السحاب؟!.. أذوائبك منسوجة من خيوط الشمس؟!.. أأهدابك تجرح؟!.. تلك الأهداب التي تظلل بشرتك اللينة، والتي تجعل بتلات الورد تتنهّد! وما شأن عينيك الساجيتين المسحوبتين في رفق ولين؟!.. ما شأنهما وأنّى لهما أن تريا في وجهي جمالا أو حتى قبولا؟!.. أقول الصدق: ما كان أسعدني حين ابتسمتِ لي، وكأن بابا من أبواب الأمل والرجاء قد تجسد للأعين وورب عن خازن الجنة فخرج منه يهتف باسمي أن أقبل

[1] النُّسْغُ: سائل يجري في النبات لتغذيته.

حصرا ولن يدخلنّها بعدك اليوم أحد! أنت المسرة والحزن اليوم، أنت العذاب وأنت الأمل، يا عذابي ويا أملي، وإني أظن أن همك سينزل معي إلى القبر، ولكن ما يؤسفني حقا أنني سأودعه صدري وأضرب دونه بابا من الكتمان ما سيقضي عليه بأن يمحى من سجلات التاريخ! آه ما أجدر حبنا بأن يؤرخ كحب قيس وليلى سواء بسواء! لو كانت دماء الأحزان التي تجري في عروقي مدادا لقلم يعبر عنها تعبيرا مجتزءًا لما كفاه أن يسوّد صفحة السماء بسحاب الأحزان! قبليني يا حبيبتي، قبليني يا أملي ويا عذابي، قبليني قبلة أودعها علالة الحب حتى أحتمل سواد الحياة!

10

وعانيت خيباتٍ وهزاتٍ أليمة في دنياي تجسدت لي أشباحا سودا تطاردني، وتسير حيث أسير، وانقطعت النظرات واللفتات، والضحكات والبسمات، والأحلام والآمال، ورأيتها في بعض الأيام تجالس غير شاب فانصهر قلبي وصار يغلي في صدري كأنّه ذوب النُّحاس في بودَقَتِه، وانتهت بذلك حكايتي مع أول حب خائب في حياتي. ثم تصرمت الأيام وتعاقبت الفصول صيفا فخريفا فشتاء فربيعا في متوالية مملة، وبرئت من علّة الحب مع تعاقبها أو هكذا خيّل إليّ؛ فأقبلتُ على الدراسة -بدافع من اليأس- بفكر مركز وعقل مكب فارتفعت على إثر ذلك درجاتي ارتفاعا ملحوظا، وصرت إلى ذلك أحب المطالعة وأقرا ما تقع عليه يداي من الكتب والروايات والدواوين الشعرية -ولا أذكر كيف عرفت القراءة أول مرة- وحببت إليّ قراءة الفلسفة والروايات الفلسفية بخاصة، ورغم أنّي لم أكن أعي جلّ ما أقرأ من النصوص الفلسفية وأعالجه في عسر وخمول، إلا أنّني كنت أشعر عند الإغراق فيها بغموض محبّب يكتنف العقل، وفيما بعد أخذت قراءاتي شيئا فشيئا نوعا من الانتظام والاتساق شغلت به خلال أوقات فراغي، وعلى إثر ذاك ما لبث الغموض أن انداح في النفس وتحديدا بعدما اطلعت على المصطلحات العجيبة والقضايا الشائكة والتحليلات الدقيقة مثل نشأة الإنسان والموت والحياة والجمال والمرأة

والروح والجسد، تلك الغرائب التي عاصرناها عمرنا طويلا في ألفة وتسليم خلال معترك الحياة اليومية، لقد كنت أقف عندها مشدوها فاغر الفم حتى أنّني جعلتُ المدارس الفلسفية ومناهجها العامة أسسا أستند إليها في دراسة حقيقة الأشياء المجردة والأشياء المادية على السواء، أما القضايا الدينية فقد حال الخوف كثيرا بيني وبينها أو لعله إيماني الغريزي، ولكنني كنت موقنا بعسر الفهم عندي أو بصعوبة جملة الإلمام في أقله فكان يقيني أن ما بني على جهل فلا أساس له إلا الجهل، وما كان أساسه الجهل فلا نصيب له من الصحة! إلى تلك الدرجة شككت بعقلي! فهل هذا من آثار الفلسفة؟!..

أما الروايات فقد همت معها في وديان ساحرة وعوالم خيالية نسجتها أيدي الكتاب البارعين من أمثال محفوظ والمنفلوطي وغارسيا وهسه وزفايج، وبدأتُ شأني معهم على أنّهم أرباب للتسلية وأفذاذ في صور الجمال المكتوب وحسب، ثم اتضح عندي رويدا ما يعرض في رواياتهم من أفكار وحكم ونظريات بشريّة غاية في الرفعة والسّمو والدهاء والعبقرية، وقد زادت قراءة الروايات من رّهافة حسي فيما أظن زيادة ملحوظة ترافقت بقلب هصرته الآلام فرقّ واستشف، غير أنّ الحزن الخبيث لم يني ينتشر -مع القراءات الأدبية- في أكناف الصدر كأنّما كان يتغذى على ما كنت أقرأ، والحق أنّ أشدّ ما لمس قلبي في فنّ الرواية تجسيده على الورق أنموذجا حيّا للهروب من الواقع، فصرت أضع الأدب مقياسا للشؤون

الإنسانية جميعا، وأرى نفسي مترفعا عما يعيشه غيري من النّاس، وشعرتُ بسمو عن الأقران والأتراب كان يواتيني عند أحداث كثيرة كأن أحبط من دمامة وجهي جرّاء النظر في المرآة، أو أمر بطريق مكتظ بالطلبة ذكورا وإناثا وبعواطفهم المتبادلة فيطغى -بشعوري ذاك- تصوري على التّحسف.

حقا لقد أحببت القراءة، واستأثرتْ بنفسي وعقلي على السواء إلى حدّ فكرت معه تفكيرا جادا في أن أكتب بل وتخطيت التفكير إلى الفعل؛ فجررت قلمي محاولا إنشاء قصص قصيرة بادئ الأمر ولكنني لم أطلع عليها أحدا فضلا عن أنّ ما كتبته لم يعجبني، وبرغم ذلك دأبت على المحاولة ولكنها باءت بالإخفاق في كل مرة، ورغم خيبة الأمل منها إلّا أنّني وجدت فيها عزاء وسلوة، وقد كنت -في محاولاتي تلك- أقلدّ الكتّاب الكبار بصياغتهم لكتاباتهم وبالسير العام لنسق ما يخطونه، بل ليس في تلك المحاولات الخائبة فحسب، وإنّما في حديثي وفي امتحاناتي الجامعية، وعلى إثر ذلك كيل لي المدح من الأساتذة مرات متعددة إلى حد نظرت معه بعين الاستعلاء -فيما بين وبين نفسي- على سائر الطلبة، وكنت أتعجّب كيف أمرّ بهم مرور الكرام وأنا "قارئ نهم وصاحب قلم فذّ وسوف أكون كاتبا عظيما يوما!" بل عدوت ذلك إلى الاعتقاد بأنهم خاسرون إن لم يحظوا بصداقتي لا محالة! ولم أكن أرى فتاة تسير مع شاب أو تجلس إليه وهما

يتطارحان الغرام إلّا واعتقدت بأنّني خير منه وبأنّها لو اطلعت على حقيقة شأني لكلِفت بي حبا على رغم دمامة وجهي، بل ولما أعارته اهتماما!

لم تفتر لي رغبة في إقامة علاقة عاطفية مع أيّ كانت من الفتيات اللواتي أعجبت بهنّ بصرف النظر عما كان من شأني معهنّ، ويوما كنت جالسا في مقعد في الصف الأول من صفوف الفصل بانتظار بدء المحاضرة، وأقبل مدرس المادة قبل بدئها بنحو ثلاث دقائق وهو يحادث فتاة هيفاء شقراء الشعر موردة الخدين، ولا أدري كيف ولكنّني خلتها تطالعني بطرف خفي حيي من حين إلى حين حتى كان أن أنهى المدرس حديثه معها وأذن لها بالانصراف ثم ابتدأ المحاضرة، وما انتهت المحاضرة حتى كنت نسيت كل شيء بشأن الفتاة إلى أن قابلتها -بعد أيام قليلات- في ممر يصل كليتنا بمجمع الكليات الإنسانية -المبنى المجاور- من الطابق الثالث، وحينها حدقت فيّ ولم تخفض عينها حتى كنت أنا الخافض أولا، وخلت أنّها أعجبت بي فرقص قلبي طربا، ثم رأيتها بعد ذلك مرات مختلفة في أكنفاء الحرم الجامعي، وازدادت قناعتي برغبتها في صحبتي حينما لكزني أحد الطلاب -وكان يقف بجانبي، وكنت على صداقة متحفظة معه بعض الشيء- بمرفقه فنظرت في وجهه فإذا هو يغمز بعينه صوب موضع لم أستبن ما فيه حتى قال هامسا وهو يحاول عدم تحريك شفتيه:

- انظر إلى الفتاة عند الشجرة المقابلة للكافيتيريا.

وروّأت هنيّة قبل أن أنظر، ولما نظرت لمحتها -هي هي بعينها- تطالعني، وما رأتني حتى ابتسمت مع صديقة لها، فقال الشاب ممازحا، وكان اسمه مهند:

- ضحكت يعني قلبها مال!

فرقص قلبي من الفرح والحبور، وانشرحتُ أيّما انشراح لأني وجدت صديقا أشاركه ما يعتمل في صدري، فبحتُ له بمكنونه وبرغبتي في وصلها وربط أسبابي بأسبابها، فجعل بدوره يشجعني على الذهاب إليها ومحادثتها قائلا إنّه لا أمل في حب صامت ما لم يتفتق في النهاية عن كلام تعقبه مناجاة، ثم ضاحكا: "ومناجاة يعقبها سرير.. ها ها" فباخ حماسي رغم أنّي جاريته في ضحكه، وخلتُ أنّها -على قرب الأمتار بيني وبينها- بعيدة عني بعد مشرق الأرض عن مغربها، كالجبل الأشم تراه عين الإنسان في زم الإبهام والسبابة وهو في الحق يقف عند أصله كالنملة إلى الفيل.

وعدت إلى منزلي وبي من الهم والوجد ما الله به عليم، وما أقبلتُ على فراشي ليلا حتى تمثل لي شأنها معي جملة وتفصيلا فأقبلت عليّ جنود الأرق، وانسلخت الليلة وأنا مسهّد لا يغتمض لي جفن، وما أصبح الصباح حتى عزمت عزما راسخا على محادثتها وليكن ما يكون. ارتديت حلة أنيقة وسرحت شعري أكثر من مرة، ثم اتجهت إلى الجامعة واثق الخطى موطدا العزم، ولكن ما أن تراءت لي بوابتها الضخمة حتى بدأ القلق يساورني، ثم ازداد اطرادا حين سرت على طرقها المرصوفة بأشعة الشمس بين مئات

من الطلاب لا ينقطع لهم عدد. ما بال القلق يعشش في صدري وأنا أسير بين هؤلاء الطلاب؟!.. أليس كل منهم مشغول بهمومه وآلامه وآماله ومخاوفه فمالي أستشعر أعينهم رقيبة عليّ رغم علمي بأنّني -بالنسبة إليهم- عابر سبيل يصادفون عشرات بل مئات وربما ألوف أمثاله كل يوم؟!.. وجعلت أجوس خلال الجامعة حتى عثرت بمهند وقد اتخذ مجلسا في الشمس، فجلست إليه وأفضيت له بما يجيش في صدري من رغبتي في محادثة الفتاة هذا اليوم، فدعاني إلى شرب القهوة فأقبلنا على الكشك وابتعنا كوبي قهوة ثم جلسنا على مصطبة مهيئة للجلوس، وابتدرني قائلا قبل أن يرشف من قهوته رشفة:

- أوقفها بلا خجل، وحذار أن تبوح برغبة في حب أو تعارف أو ما شابه ذلك فإن جوابها سيكون الرفض بلا أدنى شك؛ لا لأنّها تريد الرفض ولكن لأنّ معشر النساء جميعا يحببن أن يشعرن بأنهنّ مرغوبات من الرجل حقا وبأنهنّ صعبات المنال، فاحذر ما قلت لك فليس مثلك يقوى على تحمل الرفض.

فقلت مأخوذا بحديثه الذي جاء على خلاف ما توقعت، والاصفرار والصداع يأخذان مني شيئا فشيئا:

- ماذا عساي أقول؟!.. لا أدري بأي شأن سأفتتح حديثي معها.

قال بعد أن حسا حسوة من القهوة:

- جد لك سببا من أسباب الحديث، كأن يكون شيئا مشتركا بينكما أو ما شابه ذلك.

القلق يزداد، والمرار ينداح في الفم!

- مثل ماذا؟ لا أعرف حتى هذه اللحظة التي أحادثك فيها ماذا تدرس، ولا ما اسمها حتى!

وتساءلت في اللحظة التالية بيني وبين نفسي كيف نعشق من لا اسم له نعرفه به؟!..

- لا أدري والله، شأنك عجيب، تحبها إلى هذا الحد وتطلعني على رغبتك بها وأنت لا تعلم عنها شيئا، حتى أنّك لم تبذل جهدا في معرفة تخصصها أو معرفة اسمها في أقله.

ونظر إليّ بعد قوله الأخير فلاحظ ما اعتلاني من التوتر والشرود، فقال:

- اسمع نصيحتي: لا تحدثها اليوم؛ فالارتباك ظاهر عليك وأخشى ما أخشاه ألا تقوى على قول كلمة واحدة في محضرها.

ورآني وقد اربدت سحنتي فضحك كأنما ليخفف من حدة توتر الجو، أما أنا فشعرت بكآبة وخوف تماسا مع ارتياح غير منكور. أعجب بالمشاعر المتضاربة كيف تلتقي كأن في النفس حدا فاصلا بينها كحد الفجر الفاصل بين ظلمة الليل وطلائع الصباح! وقمنا على الأثر من مجلسنا لأزوف ميعاد المحاضرة، ولم أسْطِع في المحاضرة تركيزا ولا انتباها، ومرّ بعدها اليوم الجامعي دون أن تقع عين لي على الفتاة، ثم غادرت الجامعة في سرعة

كسرعة توالي الأحداث إلّا أنّ خاطري ظل معلقا برحابها، بل أعدتُ حديث صديقي -وأنا موسد رأسي إلى زجاج الحافلة في رحلة العودة- في رأسي وقلبته على أوجه مختلفة فابتدر خيالي خاطر ذبت فيه كأنّه حلم مهوم: رأيتني أسير معها في ممر تحف به أشجار السرو، ويحيط بنا المدعوون من الجانبين، هي في ثوب الزفاف الأبيض وأنا في بذلة الزفاف السوداء، أطعمها من كيكة العرس وتطعمني، وكم كانت عيوننا سيعدة ناطقة بالفرح! فجعلت مع ذاك الخاطر أسوق تقديرات لما يستلزمه زواجي بها من حيث ما بقي على تخرجي ثم بدئي بالعمل في وظيفة محترمة ثم التقدم لخطبتها، وأخيرا قررت قرارا راسخا لا رجعة فيه وهو أن أوقفها وأحدثها بائحا لها بحقيقة مشاعري علها تكون على خلاف النسوة اللائي قال عنهن مهند ما قال كأنّها من جنس آخر، أو أن يكون مغاليا في كلامه أو مخطئا في جملته من الأساس. ثم ما للرفض ونظراتها التي تطالعني بها من حين إلى حين؟ هذه النظرات التي ما تفتأ تؤكد لي -منذ رأيتها أول مرة- أنها نظرات مقيمة في القلب وليست بزائرة.

وبالفعل تتابعت الأيام وأنا أتحين الفرصة لأبادرها حلو الحديث، وفي عصر يوم أربعاء بعد أن أنهيت محاضراتي ألفيتها جالسة على كرسي خشبي تحيط به زهرات نرجس كانت كأنها نرجسة متوجة بينها، فوقفت غير بعيد منها ألحظها بطرفي ولم يكن في الجامعة كبير عدد من الطلبة فاستروحت نسمة راحة وهدأ ثائر صدري قليلا وخفت وجوب قلبي، ولبثت

في موقفي هنيّة ثم تدانيت منها وأنا أنظر في الأرض، ولما رفعتُ عيني وصوبتهما تجاهها وجدتها تنظر إليّ، وما أن التقت العيون حتى قامت وجعلت تسير الهوينى -وقد ولّتني ظهرها- فترددت في ملاحقتها قليلا إلّا أنّني استمديت من اليأس عزما ولحقت بها، وجعلت أتملا رأسها من الخلف قبل أن أحييها تحية المساء وما كان أجمله من رأس صغير مستدير! وحييتها بالفعل لما دنوت منها غير أنّ صوتي لم يجاوز شفتي؛ فخجلت خجلا شديدا من نفسي ولكنّني أعدت التحية بصوت أعلى فالتفتتْ نحوي رادة تحيتي ردا فاترا وهي تهز رأسها مستفسرة، فلملمت أطراف شجاعتي غير أنّها خانتني إذ -لا أدري لماذا- أعدت على مسمعها نفس تحيتي في توتر وخوف عظيمين، وسذاجة ظاهرة، ثم ازدردت ريقي وأنا أناظرها متوجسا أن تهزأ بتوتري، ولكنّها ظلت صامتة تطالعني فيما يشبه الاستغراب، فعدت أقول بصوت أعلى في نبرته قليلا:

- كيف الحال؟ لو سمحت أريد أن أحدثك حديثا هاما.

وشعرت بانسياب قطرة عرق باردة على فقرات ظهري إلّا أنّ ضغطا كبيرا خفّ عن أعصابي كأنّما كان مربوطا بتلك الكلمات، وردت عليّ تقول وهي تلتفت يمنة ويسرة فعل التي تخشى أن يطلع على موقفها أحد:

- موقفنا ليس مناسبا أبدا، تكلم بسرعة.

ولم تزد على ماقالت شيئا، وعقدتْ مرفقيها فوق صدرها في حركة عصبية، وفاجأني ردّها وقدّرتُ أن أحدا من معارفها في الجامعة، فقلت لها وأنا أريد أن أتهرب بأية وسيلة:

- أعتذر عن إزعاجك وأرجو أن تسامحيني إذا سببت لك إحراجا. أكرر اعتذاري مرة أخرى وأرجو أن تقبليه.

ووليتها ظهري ومشيت بخلاف طريقها في تلكؤ وارتباك كأنّني مصاب بعرج.

رجعت إلى البيت أحمل خيْبة شديدة، ولكن لم تفتر رغبتي لها ذلك اليوم، بل ازدادت وتأججت وإن شابها شيء من اليأس والقنوط.

11

لم أكن ممن يستطيع أن يعتمد على نفسه في بسيط الأمور المعيشية مثل ابتياع الملابس ونحوها على رغم تقدم سني ومناهزتي لعامي الواحد والعشرين، حتى أن أمي لم تكن لتطمئن إلى فكرة ذهابي وحيدا إلى أي سوق من الأسواق، وكثيرا من نهرتني -حتى وأنا طالب جامعي- على خرقي وضعف شخصيتي، وكثيرا ما كانت تقول مذكرة إيّاي:

- إنّ معظم الباعة نشالون لصوص لا يمكن أن يبيعوا شخصا في غير ربح، بل لا يرضون بالربح إذا كان زهيدا، وإنّك يا بني لا تقوى على جدال نفسك في شأن من شؤونك فكيف تجادل بائعا في سلعة؟!..

وكنت أمثل الغضب وتحاكيه قسمات وجهي دونا عن مشاعري وأقول إنّي لن أذهب إلّا وحدي لأنّني صرت رجلا ولم أعد صغيرا، ثم أفرّ من وجهها إلى غرفتي موقنا باستحالة ما أطلقته من صريح القول، حتى هي لم تكن لتلقي بالا لترهاتي؛ فلا تمرّ سويعات حتى تنادي عليّ كي أتهيا للذهاب معها إذا احتجت أن أبتاع شيئا، فكنت عند مناداتها لي أرتدي ملابسي ونذهب سويا دون نقاش أو جدال.

ومرة أزمعنا أن نترافق في صباح سبت لابتياع ملابس من وسط البلد إذ كانت الملابس فيه أرخص قياسا إلى غيره من المناطق حتى إلى ضواحيه،

ونبا مضجعي بي ولم أستطع يومها إلى النوم سبيلا -لا أدري لماذا- إلّا مع ظهور طلائع أشعة الفجر، ولما استيقظت في الغداة كنت منهكا خائرا فذهبت من فوري إلى الحمام وغسلت وجهي ويديّ ورجلت شعري على عجل، ثم عدت إلى الصالة وجلست متربعا أمام السماط[1] قبالة أمي، وجعلنا نأكل طعامنا في تؤدة، ونشرب الشاي في نفس الوقت، وشبعت أمي أولا ثم تبعتها، ولما فرغنا تمام الفراغ ارتدينا ملابسنا ثم أخذنا سمتنا صوب موقف الحافلة لنستقلها، ولم تتحرك إلّا بعد نحو نصف ساعة ذبت فيها مع الضجر في مزيج واحد، ثم جعلت الحافلة تشق الطريق، ومرت بجانبها سيارة إسعاف بأنوارها التي كانت تتبدل في حركة مستمرة، وصفيرها الموحوح كأنّما ينعى من بداخلها، في حين لا يأبه أحد من الشارع بها وكأنهم ألفوا هذه التدراجيديا المعادة. وخلال سير الحافلة الوئيد، بين السيارات الذاهبة والآيبة في الشوارع في غدو ورواح لا ينقطع، جعلت أطل من زجاجها إلى ما نمرُّ بها من معالم، وإلى صفوف النخيل المنتصبة في أواسط الجزر، وإلى أصناف المحلات في الطريق، وإلى أهداب الشمس التي تُسربل المنازل، مزْجيا بذلك وقتا كان يمرّ ثقيلا كالكآبة، ثم كان أن وصلنا أخيرا ونزلنا سويا عند مجمع رغدان واستقلتنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى وسط البلد. أعجب به من مكان عتيق! لا يكاد الزمن العابث أن يغيّر

[1] السِّماطُ: ما يمد ليوضع عليه الطعام.

معلما من معالمه كأنّه حيوان أسطوري نائم في سباته الأبدي، وأعجب بشوارعه المتفرعة التي تموج بغمار الخلق، وبمبانيه القديمة المعفرة، وبأزقته الضيقة التي لا ترى نور الشمس! تلك الأزقة التي تتقابل المحلات المختلفة الاختصاص في جانبيها على طول امتدادها، ويجلس أمام أبوابها باعة وحرفيون على كراسي من القشّ المجدول، هؤلاء ينادون في سلعهم، وهؤلاء يكبون على حرفهم تبدع أياديهم أنواع الصناعات والتحف الفنية، وأعجب بأخلاط الروائح التي تعبق بها سماء تلك الأزقة من قلي وشوي وعصر، وعطر وبخور، وروائح اليانسون والزعتر والقرفة والقرنفل تتماثل ذراتها للعين في ضوء الشمس! وهذا الجانب الشرقي من مئذنة المسجد الحسيني الذي يطالع المقبل عليه وهو يعانق السحاب! كلها مظاهر محببّة للنفس، ينجلي بعدها اختصاص الأسواق في سلع شبه محددة. وهذا رجل يحادث نفسه ويشير بسبابته مهددا كأنه يخاطب أخيلة تتراءى له، وتلك امرأة مجنونة أيضا -بل لعلها عاقلة- تغني بصوت ممطوط مرتفع يجذب أنظار الناس إليها:

((يعوض الله يعوض الله يعوض الله

الدنيا لسه بخير يعوض الله))

وعلى الطوار دَبَّ نشاط مفاجئ لفت الأنظار وشد الأسماع، وتكأكأ على أثره جمع من الناس حول رجل ملقى على الأرض يسيل الدم من منخره، ويقوم عند رأسه آخر يطالع الوجوه المستفسرة باحتقار واستعلاء وتحد،

ويعلو صوته حينا بالشتم والسباب وحينا بالتهديد والوعيد، على حين تحلقت جماعة من والرّعاع حوله وهم يستأذنونه في تأديب الرجل منادين إيّاه بألقاب تنم عن خضوعهم له من أمثال المعلم والسيد و"البرنس" والكبير. ثم كان أن رفع المعلم الرجل الملقى على الأرض بكلتا يديه فتلوى جسده في وقوفه كأنه من الرخويات، وقال له وهو يطالعه في أمّ عينه:

- أنا أبو رجا على سن ورمح، عندما أقول لك لا توقف سيارتك هنا معنى ذلك لا توقفها هنا، ورأفة بحالك ولأنّك رعديد جبان سأعفو عنك الآن، ولن أحطم سيارتك مثلما هشمت أنفك، ولكن احرص ألا أراك في المنطقة كلها بعد اليوم وإلّا لن تفلت من يدي بسلام.

ثم موجها كلامه لرجاله:

- ما رأيكم يا رجال؟؟

فقال أحدهم:

- طول عمرك أصيل يا معلم.

وقال آخر:

- لو كان الأمر منوطا بي لما قنعت بأقل من تهشيم رأسه لا أنفه وحسب، بل لقطعت رجليه اللتين قادتاه إلى هنا، ولكن الذي تراه يا كبيرُ نافذ علينا جميعا وعلى الرأس والعين.

وقال آخر:

- دعه يا معلم فأنت أكبر من أن تلوّث يدك به، واتركه لي أخدد وجهه بطرق وشوارع!

فما كان من المعلم بعد استحسان جماعته لرأيه إلّا أن لبّبَ الرجل وهو يطالعه بنظرة شزراء هائلة، ثم دفعه دفعة قوية ارتطم على إثرها بسيارته فركبها في خوف بيّن وانطلق يشق الريح. وأخذتني حالة من الإعجاب والفتون حينها، ولم يَلَذَّ لي شعور مثل الذي انتشر في نفسي تلك الساعة، وقد غبطت المعلم على قوته وجبروته الذي لو كان لي مثلهما لما أعجزني شيء في الدنيا ولا قهرني فيها شخص ولا أعوزتني وسيلة، ويبدو أنّني نسيت نفسي لحظات شردت خلالها في دخيلتي في دنيا من الرغائب الدموية كأن لي وجودا آخر، أو كأنّني انسربت إلى أعماقي بصورة تعجز الفلاسفة وأصحاب العلوم النفسية عن وصفها، وبينا أنا كذلك إذ ثبت إلى وعيي فرأيت المعلم يحدق فيّ فهيْلت نفسي[1]، ثم أشار براحته الممددوة وكأنه يقول: أدنُ مني. فجمُد الدّم في صدغيّ وانكمش قلبي كما لو أنّ يده امتدت إلى جوفي وقبضت عليه، وانتبهتْ أمي إلى إشارته فذعرت ذعرا شديدا وأمسكت بيدي وولت كالهاربة وأنا اترك يدي لها تسوقها كالسائمة بينا تغلي حرارة الخوف في جوفي، وابتعنا ملابسنا وغدرنا وأنا خائف شديد الخوف، ولم أستشعر برد الراحة إلا عندما عدنا إلى البيت.

[1] أي فزعت من الهول

الغريب حقا أن صورة المعلم لم تبرح مخيلتي لفرط إعجابي بقوته وجبروته، وظللت أفكر فيها أيّاما بل عدوت التفكير إلى تمثيل أدوار مسرحية جسّد فيها خيالي جمهورا معجبا من المعارف: طلبة وجيرانا وأساتذة وأصدقاء، أدّيت فيها بطولات عظيمة وقفت فيها مدافعا عن مظلوم أو عرض مثلوم، وبتأثير دافق من رغبتي الشديدة في ذلك صحت عزيمتي على أن أمارس دور القوي أمام أيّ معترض يعترضني من الناس في أي موقف من المواقف، وتمثلت لي شخصيتي في طور من أطوار القوة التمهيدية فجعلتُ أخطط لممارسة التجاذب البصري مع من يحاورني من الناس إلاّ أنّ الخوف والعجز أناخا عليّ في كل موقف وقفته، وكنت لذلك أرجع إلى البيت أجترُّ مرارة الخيبة غَصصا أمرّ من الحنظل!

وسحبت الأيام ذيول النسيان على حادثة وسط البلد حتى رجعت إليه في يوم من أوائل أيام ديسمبر -لوحدي هذه المرة- قاصدا التنزه والمشي، وكان الجو باردا نسبيا فحبكت معطفي حول جسدي، وجعلت أسير متريّثا بين جموع الناس على البلاط المبلل الذي عكس أنوار المصابيح فبدت كأنّها نجوم أرضية، واستوقفني وجه ذكرته على الأثر، أجل كان وجه المعلم لا غيره، وكان واقفا على الطوار يحادث جماعة من السُّوقة تميزهم العين عن غيرهم من لباسهم وهيئتهم، فتوقفت بغير إرادة عن المشي وركنت إلى جسر حديدي كان يفصل الرصيف عن الشارع، وجعلت أنظر إليه -لا أدري لماذا- متفحصا متأمّلا حتى وقعت عينه عليّ فأقبل نحوي مترنحا يخبط في مشيه

خبط عشواء، ولم أقو على امتلاك أعصابي من الذعر ولم أستطع أن أغادر موقفي، ووصلني وهو ينظر إليّ شزرا ويقول في تهديد ووعيد ورائحة الخمر اللاذعة تتطاير من فيه:

- إلام تنظر يا ابن القح.....؟!..

ازدردت ريقي بصعوبة، وتيبّس حلقي ولم أنبس ببنت شفة، فتعاظم عنده صمتي وربما أوحت له الخمر بدلالته على أنه تحد له، فقبض على منكبي بيده الضخمة الطويلة الأصابع، ولاحظت عندها وشما لكلمة (أمي) على صفحة رقبته اليسرى وهو يقول:

- مالك ساكت يا.....؟!.. أتريدني أن أغير ملامح وجهك تغييرا كاملا حتى تعرف أن الله حق؟

واستمديت من الجزع قوة يائسة تمثلت في كلمات ألقيتها على عواهنها دون أن تعيها أذناي:

- أنا معجب بك يا معلم، هذا كل ما هنالك.

وكانت جماعته قد أطافت بنا في تلك اللحظة، فما سمعوا كلامي حتى قهقهوا في هرموني واحد، ولم يملك المعلم إلّا أن يحذو حذوهم، فقهقه وأطال، ثم صمت قليلا وهو يهز رأسه في ابتسام وزهو -حتى إنسان مثل هذا يطرب للمديح- قبل أن يقول:

- معجب فيّ؟!.. أنا؟!.. ومن قال لك إنّي أحب الأولاد؟!..

ففهمت إلاما يرمي في كلامه فقلت جزعا متداركا ما فرط مني وإن ارتحت لابتسامته بعض الشيء:

- لم أقصد هذا يا معلم، حاشا لله، أردتُ أن أقول إنّي معجب بقوتك وجبروتك وسطوتك، هذا ما أردت أن أقول.

فازداد ضحكا وأمسكني من يدي وقادني إلى الطوار، وأخرج علبة سجائره وسحب منها سيجارة وأشعلها وهو يشير لي براحته أن أجلس على مصطبة حجرية وطيئة، ثم جعل يمجُّ دخان السيجارة في دوائر وأشكال فيما ينظر إليّ بعينين ذبّلهما السُكر، وقال في خُيلاء:

- معجب بقوتي وجبروتي إذن؟ وكيف عرفت قوتي وجبروتي؟

وقبل أن أنطق بكلمة قال مستدركا:

- كيف أسأل ذلك، ما من إنسان يمر بمنطقتي إلّا ويخرج منها وهو يحسب لي ألف حساب، وسيرتي نار على علم، ليس في وسط البلد وحسب ولكن في عمّان كلها.

وقهقه عن أسنان مصفرة ناخرة، ثم صمت في شيء من الشرود وهو يجذب عقب سيجارته، وتجلتْ في عينيه نظرة غائمة فشعرت بأنني حيال إنسان ميت، ثم هزّ رأسه في ما يشبه الأسى وجعل يقول بلهجة الفيلسوف المتمرس:

- جميل جدا أن يخافك الناس، وحين تكون ضعيفا تؤكل، هذه هي القاعدة في دنيانا وهي قاعدة معروفة وثابتة لا تتبدل مثل 1+1=2 وربما

كانت هي الحقيقة الوحيدة في هذا العالم المسعور، ومأثور عن النبي دعاءه ((أستعيذ بك يا رب من قهر الرجال)). لا أدري أهكذا قاله أم أن هذا القول يؤدي المعنى المقصود، وقد قيل هذا الحديث قبل نحو ألف ونيف من السنين فغير بعيد أن يكون قائله واحد آخر، أو أن يكون ناقله قد نقله بلفظه الحالي في حين كان يقصد نقل معناه، المهم أن هذا الدعاء النبوي ينطوي على أعمق المخاوف البشرية، ولذلك لا بد للرجل من أن يكون قويا، واضرب التسامح بعرض الحائط فالقوي حقا لا يفهم له معنى أبدا، أما الناس المتسامحون فهم باختصار أناس غير قادرين على أخذ حقهم بيدهم. قل لي يا ولد أليس كلامي صحيحا؟

وازداد توتري عند ذلك ولكنّني لم أملك إلّا أن أهزّ رأسي إيجابا وأنا أتعجب من الشأن الذي خاض فيه حديثه وأعجب بفلسفته ومنطقه، ولكن هل راقني حديثه لأنّني وجدت فيه ما ينقصني حقا في الدنيا؟!.. ولو سمعته في ظرف مغاير فهل سيعجبني أم سأهزأ به؟!.. كيف لي أن أعلم؟!.. وبغتة غير دفة الحديث متسائلا وهو يشعل سيجارة من عقب الأولى:

- ماذا تفعل في حياتك؟

قلت:

- أنا طالب جامعي.

قال:

- مسكين! في أي جامعة تدرس؟

- في الجامعة الأردنية.

- لا أدري لم تتعبون أنفسكم أيّها الشباب في الدراسة في بلد يقتل أيّ أمل في حياة كريمة، قل لي بالله كم كلفتك دراستك حتى الآن؟ ما من داع لأن تجيب فأنا أعرف حق المعرفة لصوصيتهم وجشعهم! ثم أليس كان أفضل لك أن تشتغل في صنعة ما كأن تكون ميكانيكيا أو حدادا أو بزازا أو ما شابه، أو ربما بلطجيا قوادا وهو في هذا الزمان خير من العلم كلّه؟

أجبت وأنا أهزّ رأسي مصطنعا مخائل موافقته على كلامه:

- ليس لي دراية بالحرف والصناعات، والحق أنّني كنت سألتحق بالسلك العسكري قبل دخولي الجامعة، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

- رجل أمن؟!.. لو فعلت ذلك لربما كنت اليوم أحد ضحاياي أو أعدائي بدلا من أن تجلس قبالتي تحادثني.

وقهقهة وأطال بصورة شاذة قبل أن يسأل:

- صحيح، ماذا تريد مني؟

وعلاني ارتباك ظاهر لم أحر معه جوابا، ولما رأى صمتي وارتباكي قال:

- قطيعة تقطعك، ظننتك راغبا في الانضمام لرجالي، على أي حال يستحيل أن أقبل غرا ضعيفا مثلك، اقلب وجهك رافقتك السلامة.

وتحركت في خجل أليم، ولم أبتعد قيد مترين حتى نادى عليّ، فالتفتُّ إليه باسما في خجل، وتسمّرتُ في مكاني لحظات وهو يحدّق في عينيّ ورأسه يتحرك صعودا وهبوطا، ثم قال:

- قلت إنّك كنت ستعمل رجل أمن ولكنك دخلت الجامعة راضيا بقضاء الله وقدره، صحيح؟ إذن إذا دارت عليك دوائر الحياة غدا ولم تجدِ الشهادة معك نفعا فلا ترفع رأسك إلى السماء مسائلا الله لم يا رب لم ترزقني بوظيفة!

وانصرفت وأنا أتعجب من منطقه في الدنيا، فيما يردد باطني بدون وعي:

((يعوض الله يعوض الله يعوض الله
الدنيا لسه بخير يعوض الله!))

12

- اسمها وفاء، وهي طالبة في قسم علم الاجتماع.

قال مهند ذلك وهو يغمز بعينه. كان دعاني إلى مجالسته لاحتساء القهوة وهي جلسة اعتدناها في الصباحات الجامعية منذ أسابيع قليلة، وكان الوقت خريفا وقد هلّت طلائع شهر نوفمبر من رياح رخاء باردة وأوراق متساقطة تملأ الطرقات، ولقد لبيت دعوته غير أننا جلسنا في بهو الكلية -على غير مألوف العادة- دفعا للبرد.

وتوقفتْ يدي عن حبك جاكتتي بحركة مصطنعة وتساءلت وأنا أنظر في الفراغ ردا على مقولته:

- من؟
- حبيبة القلب، مالنا، أنسيت؟
- ما غيرها؟
- صحيح، ما غيرها.
- والله يا مهند لم أنس أبدا غير أنها ارتبكت كثيرا في المرة الماضية حينما حادثتها، وأغلب الظنّ عندي أنّ لها قريبا أو أكثر في الجامعة وهذا كان سبب ارتباكها؛ فلا أعتقد أنّي سأقدم حقا على محادثتها مرة أخرى.

ابتسم ابتسامة ساخرة، ثم ألقى راحته على منكبي وجعل يقول:

- لا يا رجل، لو كان لها أقرباء حقا لما كلفت نفسها عناء النظر المتكرر إليك، ولكن معشر النساء -وغالبيتهن في هذا سواسية- يحببن أن يظهرن بمظهر البراءة الزائفة أمام الرجل -أيّا كان الرجل- حتى لا يظنّ بها الظنون، وربما تبيت اليوم في حضن رجل وتتمنع عن الحديث مع آخر غدا بحجة الحفاظ على نفسها للزواج، ولست أقول أبدا عن محبوبتك بأنّها سيئة لا سمح الله، ولكنّي أريد أن أوصل لك فكرة عن كنْه عقل الفتيات ومضمون تفكيرهنّ، فاقصدها وحادثها في أقرب فرصة بلا تردد حتى لا تيأس منك، وستجدها على خلاف ما كانت عليه المرة الماضية خصوصا وأنّ غيابك عنها قد يكون أثار عندها الظنون.

ورغم ظاهر الطمأنة في حديثه إلّا أنّه ألقى عبئا كبيرا على كاهلي ما كان أغناني عنه؛ كالطبيب يطمئن المريض إلى فعالية دواء معين ولكنّه يذكر ثمنه المرتفع عفوا.. وما أحوجني للدواء فعلا ولكن ما علتي الحقيقية؟!.. هل يوجد داء جسدي نغص عليّ حياتي كل هذا التنغيص؟!.. ونظرت فيما أمامي متفكرا فطالعني الشارع الرئيس الممتد بين كليات الجامعة والطلبة يذهبون ويجيئون فوق أديمه وقد بدا بعضهم غير عابئ بالبرد، وأوراق الأشجار تتساقط على حفافيه فما أشبهها بالناس من حولنا. ثم دبّت حركة مفاجئة علا معها هدير الطلبة فاتجهنا صوب مصدر الصوت فإذا بمعركة شديدة قائمة بين طالبين لا أدري من هما ولا ماذا يدرسان ولا فيما يتعاركان، وأجدتْ محاولات رجال الأمن الجامعي في ضبطهما بعد

لأي، ثم ساقوهما إلى داخل المبنى وصوت أحدهما يعلو بسباب الله والناس. وخيل إليّ في تلك اللحظة أنّ البشرية جمعاء تئن من وطأة داء أصاب العضو المسؤول عن الأخلاق، وأن لا سبيل إلى البرء منه، وأنّه لا بدّ من فناء الجنس البشري. ولم أشعر إلّا ومهند يهتف باسمي في صوت ضاع صداه في تضاعيف هدير الجامعة رغم أنّه كان على قيد أشبار مني، فالتفت إليه فإذا به يشير بطرف خفي فنظرت حيث يشير فإذا بالفتاة واقفة تطالعني فيما يشبه الابتسام، فغضضت طرفي سريعا وأنا أنغز مهند بمرفقي معاتبا، وجعلتُ أنظر إليها بين الحين والحين. كانت تتألق في معطف خمري اشتمل على غالبية جسدها، ومن تحته لاح بنطال أسود راعى تقسيم ساقيها، أما الوجه فحلاه الزواق الخفيف الذي وضعته من أحمر الشفاه وكحل العين فتبدت آية في الأناقة والجمال، ولم تلبث إحدى صويحباتها أن أقبلت عليها فتأبطت ذراعها وسارتا في اتجاه معاكس لنا ولم تني تلتفت إليّ في سيرها وهي تتضاحك وزميلتها، فأمدني ضحكها بعزيمة لا تلين فصممت على أنا أتبعهما، وشجعني مهند فتبعهما في غير ارتياح حتى انتبذتا ركنا في حديقة كلية الحقوق، فمررت من أمامها وتابعت سير حتى غيبني منعطف الكلية، وهناك صرت أنفخ في ضيق مزيلا عن صدري غبار التردد والخوف، ثم عدت إلى مكانهما وجلست قبالتهما على مدى غير بعيد وأنا أختلس النظر إليها في الفينة بعد الفينة، ولم أنظر إليها مرة إلّا ووجدتها تسترق النظر إليّ، فاتخذت قرارا حاسما وأقبلت عليها مصمما،

ولم ألحظ نفسي إلّا وأنا أقف إزاءها وقد طالعتني بوجه مستفسر شابه بعض توتر تبدى في عقد الحاجبين فأعطى وجهها مسحة جميلة من العبوس، وأنشأت تلتفت فيما حولها، فقلت مندفعا في كلامي:

- مرحبا، أريد أن أحدثك بكلمات قليلات إذا سمحت لي.

فازداد توترها، وخيل إليّ في تلك اللحظة أنّها إنّما كانت تهزأ بي طوال تلك المدة، وقالت:

- تحدث، قل ما عندك.

فرمقتُ رفيقتها وقلت مزدردا ريقي:

- الحديث شخصي، لذلك أتمنى أن يكون على انفراد.

ونهضت صديقتها وهي تجمع حاجاتها تريد الانصراف فما كان منها إلّا أن قبضت على ساعدها وهي تقول:

- قل بوجود صديقتي فلست أخفي عنها شيئا.

فلم أتمالك من فرط توتري إلّا أن أجلس بجوارهما على مقربة منهما، وكم كانت حركة ساذجة مني لا أدري كيف أتيتها! وانفعلتْ على إثرها ونهضت من مكانها غضبى وصرخت "أأنت مجنون؟" فقمت من فوري ووليت المكان متواريا خزيان وأنا أتعثر من فرط حيائي، وفي اللحظة التالية تمنيت لو أنّني سخْتُ في الأرض ولم أحدثها بكلمة! بل ليتني انتظمت في جامعة أخرى من البداية حتى لا أرى وجهها أبدا! وابتعدتُ عنها جهدي حتى صادفت مهند جالسا مع صديقين له كنت قد رأيتهما في بعض المرات

فذهبت ناحيتهم خائبا متوترا وقد تجسدتُ خجلا خالصا في هيئة إنسان، وجلست بينهم بعد أن صافحتهم، وكان طعم فمي كما لو صب فيه ذوب المعدن، أما خذلاني فلا تسل عن مقداره شيئا. ولاحظ مهند ما طبع على وجهي من سيئ العلائم فساءلني عما حصل معي، فلم أبال بأن نفضت إليه جملة حالي على مسمع من الشابين الجالسين، فهز رأسه في استغراب وتعجب، وأكبر الأمر[1]، ثم نعتها بالعهورة وبغيرها من الألفاظ مما أذكر الآن بعضه وأنسى بعضه. ولما ثبتُ رويدا إلى نفسي تذكرت أنّني لم أر وجه صديقتها رغم نظري إليها أكثر من مرة! وخنقني إحساس بالحياء من سيري في أركان الجامعة أن تقع عليّ عين رأتني في ذلك الموقف العظيم، فاتخذت من بعد تلك الحادثة نهجا حازما يقوم على حضور المحاضرات ثم يعقبها مغادرة ورواح سريع إلى البيت، ونظر منكسر لا يلتقي بنظر فتاة، وكان ذلك شأني حتى آخر أيام الدراسة. فهل أنا بعد هذا إلّا إنسان معذب؟!..

[1] عدّه كبيرا

13

ومرت الأيام يقفو بعضها بعضا في سرعة جنونية، وتخرجت في الجامعة وصرت أحمل رتبة أستاذ ظننتها بشيرا بتغير وجه الدنيا لي، وقد كان تخرجي في الجامعة وخروجي منها مؤلما كما ينفلت الوليد من رحم أمه، ذلك أنّي لم أعش حياتها كما يجب، ولم أحظ فيها بقلب يحنو عليّ ويحدب. وظلت ذكرى الفتاة الأولى -ريم- تطاردني بين الحين والحين رغم تخرجي وانقطاع الأسباب بيني وبينها، وجعلت أعضُّ أصابع الندامة على ما كان من أمري معها، وأحدّث بشأنها الرائح والغادي من الناس القليلة التي أقمت معها علاقات بشرية، أما غيرها من الفتيات اللواتي شعرت إزاءهن بعاطفة يوما، فلم يعدن يردن إلى أفكاري إلّا في أخيلة عاطفية حزينة أو أخرى جنسية شهوانية، ولم تكن هذه الأخيرة تأتي إلّا قليلا خصوصا في ساعات الليل المتأخرة، ولكنها إذا جاءت تكون مفرطة بحيث ظننتها في بعض الأحيان ناجمة عن اضطراب في الرغبة الجنسية؛ فأدمنت العادة المرذولة معها إدمانا كبيرا بوحي من الرغبة وبإيعاز من أحاديث الشباب المختلفة عنها في مدراج حياتي المتتالية، مستكشفا بذلك غرائز مودعة في بدني منذ زمان موغل في القدم، وكنت أفعل ذلك كاتما أنفاسي أن تفضحني في جو الحجرة الصامت، وما كنت أنتهي من فعلتي تلك حتى

يقرعني شعور مؤلم بالندم وإحساس موجع بالنقص والحيوانية، ورغم ذلك لم أكن حيوانا تعبث به خيوط الرغبة؛ وإنما كنت مخلوقا ضعيفا يستميت في البحث عن تعويض نفسي وعاطفي لمعاناته وحرمانه في الحياة، ومرة -في أعقاب شعور عميق بالندم- خطر لي على حين غرة أن أستشير طبيبا نفسيا، ومرت الفكرة مرورا زائلا كما تمر أفكار الحياة اليومية، ونبذت الخاطر من رأسي ولكنّه كان يعاودني دوما عند أدنى إحساس بالمشاعر الدونية، ثم لم يلبث أن سيطر على تفكري فاتخذت قرارا حاسما بتنفيذه، ولما كانت ثقافة الطب النفسي على درجة قليلة من الانتشار الجغرافي والفكري في مجتمعا، بل وكانت منقصة للشخص يلمز بها ويظنُ به معها الظنون، فقد جعلت أبحث عن عيادات نفسية في مناطق بعيدة عن حينا تجنبا للشعور بالخجل والفضيحة، ووقفت على عيادات عدة بالفعل ولكنها اشتركت جميعا في الثمن الباهض للجلسات التحليلية وهو ما لم أكن أطيقه، وكدت أفقد الأمل لولا أن سمعت اتفاقا حديث جارة من جاراتنا مع أمي في جلسة صباحية عن افتتاح عيادة للطب النفسي في المستوصف الصحي التابع لمنطقتنا، وأنّه كذلك مشمول بالتأمين الإلزامي، وأنّه يعالج حالات الإدمان وحالات المرض النفسي على اختلافها. كم فرحت حينها حقا! وظننت أنّ الله أراد بي خيرا أن أطلعني على مضمون حديثهما، وفاجأتني المرأة بأن تابعت كلامها -وأنا أرهف السمع لها- بأنّ العيادة باشرت العمل منذ أكثر من شهر على وجه

التقريب، وجعلت تتكلم كذلك عن مدمن من الحي ساقه ذووه إليها لبدء العلاج، وقد أراحني فعلا بُعد المستوصف النسبي عن بيتنا فلن يعرفي والحال هذه من الناس أحد، لذلك لم ألبث أن اتجهت إليه بدافع من رغبتي في النجاة بغير تردد، ودخلت البهو الرئيس للمستوصف ومضت إجراءات تحويلي إلى عيادة الطب النفسي على خير حال وأيسره، ثم طلبني موظف الاستقبال أن أتّجه من فوري إلى العيادة النفسية، ولم أعثر بموقعها ابتداءً فقررت أن أسأل موظف الأمن عن مكانها، وسألته بالفعل وأنا أعاني شعورا مخجلا قهارا، وزاد توتري أنّه رد عليّ متسائلا عن داعي زيارتي لها. فماذا أعاني يا ترى؟ ولم أحر جوابا فأعقب سؤاله بحديث مطول مرهق عن الإدمان وآثاره السلبية وحرمته الدينية واستحقاقه للعذاب من الله -في وعظ مكرر ممل- واستنتجت من حديثه أنّه ظنني مدمن خمر أو مخدرات فارتحت كثيرا لظنه ذاك فهو على أية حال خير مما جئت لأجله، ولطالما ارتبط بذهني بحاجة ملحة إلى الرجولة وقدرة غير متناهية على اتخاذ القرار، وذلك مما لم يكن في مقدرتي إتيانه. ثم دلني الرجل على موقع العيادة وهو يدعو لي بالشفاء والهداية، وسلكت المعبر الذي أرشدني إلى الموقع من خلاله ووصلت العيادة بالفعل وقد عرفتها من لافتة حملتها بوابتها "عيادة الإدمان والطب النفسي". لا أدري لماذا خفت عندما قرأتها! ودخلت صالة الاستقبال فألفيتها فارغة تماما فداخلني ارتياح عابر، واستفسرت السكرتيرة عن داعي قدومي فأخبرتها بأنّني بحاجة

إلى طبيب نفسي، فدعتني إليها فاتجهت نحوها متمالكا نفسي ما أمكن، وطلبتْ إثباتي الشخصي أول الأمر فناولتها إياه فجعلت تدون ملاحظات في سجل أمامها من الاسم والعمر والإقامة ونحوها، ثم بدأت تسألني وكأنها تستجوبني، وتسجل إجاباتي في سجلها ذاته:

- ما العمل؟
- لا أعمل البتة.
- المستوى التعليمي؟
- بكالوريوس في اللغة العربية.
- كم عدد أفراد أسرتك؟
- أنا وأمي فقط.
- كيف طبيعة علاقتك بأمك؟

واستغربت سؤالها ولكنني أجبت:

- على أحسن حال.
- وماذا عن أبيك؟
- توفاه الله منذ زمن طويل، والحق أنّي لم أع على وجوده في حياتي أبدا.
- أتعاني من أية أمراض مزمنة؟
- كلا والحمد لله.
- أزرت عيادة نفسية قبل اليوم؟

- كلا.
- هل تأخذ أي عقارات مخدرة؟
- كلا.
- هل تشرب الخمر؟
- كلا.
- هل تمارس التدخين؟
- كلا.

وهنا طلبت مني أن أستريح قليلا، ثم دخلتْ حجرة الكشف وغابت فيها لدقائق معدودات على حين جعلت أتلهى بالنظر في مجلة وأنا من القلق والتوتر في غاية، ولما عادت ابتدرتني قائلة:

- أستاذ أحمد، المواعيد مشبعة للأسف، ولا سبيل إلى رؤية الطبيب قبل نحو شهر من الآن، فهل تريدني أن أثبت الموعد؟

وجاوبتها بالإيجاب على نحو سريع رغبة مني في الهروب، فدونت الموعد وسجلت بجانبه رقم هاتفي حتى تذكرني به في حينه، ومرّ الموعد دون أن أذهب فقد حال بيني وبينه عجز روحي الخائر، وأفكار مرهقة -على تفاهتها- عن وصمة العار التي ستلاحقني ما حييت، ولم تذكرني السكرتيرة بالموعد أبدا. وهأنذا ما زلت أعاني من شرخ نفسي عظيم، وهأنذا أتساءل مرة أخرى: هل أنا بعد هذا إلّا إنسان معذب؟!..

* * *

وانسلخت ثلاث سنوات من العطالة بعد التخرج على هذه الحال لم أصنع فيها شيئا إلّا المكوث في البيت قبل أن أنتدب في نهاية السنة الثالثة من قبل وزارة التربية والتعليم مدرسا في مدرسة ((أبو عبيدة الثانوية)) في حي مجاور لحينا، فاستروحت نسمة أمل بتبدل حالي وانتهاء عوزي رغم مرتب الوظيفة الذي لم يكن يربو على ثلاثمئة دينار، وقابلتْ أمي خبر توظيفي بالفرحة والحبور ولكنها لم تلبث أن دخلت إطار القلق والتوتر كمنظوم عادتها دوما إزاء كل جديد، ولما رأيت تغير سحنتها سآلتها عما يعتور بالها فأنكرت عليّ سؤالي ولكنها تخلت عن عنادها أمام إلحاحي، قالت:

- الحقيقة أنني أخشى عليك يا بني من هذه المهنة الشاقة، فطلاب اليوم لم يعودوا طلاب علم كما كانوا في جيلنا، بل وغالبيتهم حقيرة عديمة التربية، وهاك الإذاعة تبث عبر أثيرها يوميا أخبارا كثيرة عن اعتداء الطلاب أو ذويهم على المعلمين، وذاك أخشى ما أخشاه عليك فلست حملا لهذا.

وكأنّي بها وقد أطلعتني على جديد غاب عني، ولكنني استغرب حديثها وتعجبت له، ورددت عليه:

- وكّلي الله يا أماه، لقد وظفت في مدرسة ثانوية ولا بد أن يكون طلابها على قدر كبير من الاحترام والمسؤولية، ثم إنّي سوف أصاحبهم وأكون لهم صديقا وهذا سيحدو بهم إلى احترامي، وقد عانيت كثيرا -وأنت

تعرفين ذلك- من جلوسي الطويل في البيت، ثم تريدينني على أن أستغني عن الوظيفة عندما جاءت وألا أفترص هذه الفرصة! أأظل الدهر كله عاطلا بلا عمل؟

وحوقلت في حزن، ثم قالت:

- افعل ما بدا لك، ولكن عدني بألا تعتدي على طالب واحد.

واستثار قولها ألمي بقدر ما أضحكني. أمي التي عاصرتني عمرا طويلا لا تريدني أن أعتدي على طالب! ألا تعرف أنّني أقف عاجزا حيال النظرات، وأنّني لا أقوى على قتل صرصار يطوف بجنبات الحجرة؟!.. وكدت أن أضحك -لا من قولها ولكن من نفسي- غير أنّني قبلت يدها وقلت:

- إن شاء الله.

وأقبلتُ على المدرسة بعد بضعة أيام لم تجاوز الأسبوع -سرت خلالها بإجراءات التعيين- ورغم توتري -النّاجم أغلبه عن حديث أمي- وقع في ظنّي أنّي سوف أحظى بمكانة مرموقة يملها موضعي الجديد من المجتمع، وخلت كذلك أنّ شأني مع تلاميذ اليوم سيكون كما كان شأني حين كنت تلميذا مع المعلمين، وأنّهم لن يكونوا على خلاف جيلنا من التأدب والاحترام والخوف والرهبة، وكم كانت صدمتي عنيفة منذ أن جازت قدمي أول عتبة باب صفي! لقد استقبلني الطلاب استقبالا ساخرا شيطانيّا تمثل في مطّ أصواتهم في هارموني واحد عند رد السلام الذي ألقيته عليهم، ولم يهدأ الصف أبدا -كأنّه خلية نحل- طوال زمن الحصة على رغم جهودي

الضائعة في ضبط الطلاب أو بالأحرى في استجدائهم صمتا، ولما كان مثلي عاجزا عن الضرب -فضلا عن النّهر والتوبيخ- ولما كنت أيضا غير حاضر الشخصية بل ولا أتمتع بأيّ سبب من أسباب الجذب -من لباقة الحديث ونحوه- فقد باءت محاولاتي في ضبطهم بالإخفاق، ثم لم يكن الفصل الثاني بأحسن حالا ولا الذي تلاه حتى خلت رأسي سينفجر بفعل الصداع في نهاية اليوم المدرسي، وبأنّ صدري سينصدع هما وكمدا، ورأيت حال بعض المعلمين مشابها -رغم أنّه أيسر من حالي- فانزعجت كثيرا لوضع التعليم الراهن، وتذكرت بحسرة وحزن وسخرية عبارات شتى مثل "كاد المعلم أن يكون رسولا" و"من علمني حرفا صرت له عبدا". وتساءلت هل ترجع هذه الشيطنة من الطلبة إلى وضع المجتمع ككل، أم أنّ الدولة -وما تقدمه من رواتب معدمة للمعلمين وما ساقتهم قوانين الوزارة إليه من ترد في مكانتهم الاجتماعية- هي المسؤول الأول، أو أنّ المنظومة التعليمية انهارت ككل -وعلى رأسها المعلم- فلم تعد تستحق الثناء والتقدير؟!.. وأزعجني طالب من الطلبة خلال الأسبوع الأول إزعاجا مبالغا فاتجهت به إلى مدير المدرسة، فما كان من الأخير إلّا أن صفعه صفعة مدوية لم ينبس الطالب معها، فنظرت بإجلال إلى المدير وشعرت برغبة في استنساخ مثال من شخصيته القوية، فهل يكون هذا ممكنا يوما؟!.. إنّ في رغبتي أن أبدل نفسي أو أن أخلقها خلقا جديدا، ولست في الحقيقة أعرف بغيتي الحقيقيّة ولكن يكفيني أن أنتشل نفسي من وحل هذه الآلام فهل يكون

هذا ممكنا يوما؟!.. وصرف المدير الطالب إلى صفه ودعاني إلى الجلوس، وجعل يحدثني بلهجة متمرسة عن حاجتي إلى الحزم في إدارة الغرفة الصفية، وشكم المشاغبين من الطلبة، وإشباع وقت الحصة المدرسية حتى ينشغل الطالب ولا يشغلني معه، وأنا أستمع إليه وأهز رأسي موافقا بينما يهتز قلبي حزنا.

وتعرضت خلال الأسبوع الثاني لتنمر طالب ثانوي في باحة المدرسة ولم أستطع عليه ردا حتى جاء المعلمون ففصلوا ما بيننا، وكان ذلك حينما دق الجرس إيذانا بانتهاء الفرصة المدرسية فأخذ المعلمون المناوبون جميعا يأمرون الطلاب بالعودة إلى الصفوف المدرسية منهم طائفة تفعل ذلك بالعصا، وجعلت أنا أفعل فعلهم براحة يدي وفمي ينطق لهم بعبارات ودية من مثل: "ادخل يا حبيبي". و"لو سمحتم يا شباب عودوا إلى الصف". و"من فضلك يا أستاذ ارجع إلى الصف". إلخ.. إلخ.. وكنت أقول تلك العبارات ومثيلاتها وأنا أزدرد ريقي في خوف ظاهر وقلق بيّن، ثم كان أن أتجهت إلى طالب حاد الطبع سيئ الخلق عنيف رد الفعل -لا أدري إن كان مع جميع المعلمين أو معي ومع أمثالي منهم لا غير- وطلبت منه الدخول إلى المبنى المدرسي، ولم أجاوز حدا من حدود الأدب معه ولا خاطبته بنبرة مختلفة عن خطابي لغيره من الطلبة، وما طلبت منه الدخول حتى قال:

- وإذا لم أدخل ماذا أنت صانع؟

واستفزتني عبارته استفزازا كبيرا، فقلت وأنا أكبح جماح نفسي:

- لم أقل شيئا إلّا أن طلبت منك أن تفعل ما يفعل سائر الطلبة، فهل أسأت إليك في طلبي أو خاطبتك بنبرة معدومة من الاحترام؟

وتحلقت بنا جماعة من الطلبة، فاشتد على إثر ذلك حماسه فيما خِلتُ وقال باستهزاء:

- سألتك: إذا لم أدخل ماذا أنت فاعل؟

وزاد إيغالا في استفزازي، فدفعته بيدي دفعا رفيقا لم يحرك منه إلّا ثيابه، فدفعني بدوره دفعة قوية كدت أسقط على إثرها على الأرض، فأقبل المعلمون عند ذلك إذ انتبهوا للحادثة وفصلوا ما بيني وبينه وساقوه إلى الإدارة المدرسية وهو يصرخ ويمعن في السُباب، وطلبوا مني أن أتبعهم ففعلت، وفي الإدارة انتهى كل شيء سريعا إذ عفوت عن الطالب وأسقطت حقي أن يتعرض لي مرة ثانية.

لقد خلت بعد ذلك اليوم أنّ جميع الطلبة في المدرسة يتغامزون ويتضاحكون عند مروري بهم ما سبّب لي ألما نفسيا حادا هرس قلبي في غير رحمة، ورافقتني بعده كآبة ملازمة لا تريم وصلت ليلي بنهاري لأسابيع. ثم خطر لي خاطر استروحت معه نسمة راحة خاطفة تناسيت فيها همومي آنيا: مالي أمكث في بيئة تجعلني مريضا كل هذا المرض؟ ألا يمكن أن أستشفع بأحد لينقلي من بيئة التعليم قاطبة إن أمكن، أو في قليله من بيئة التعليم الثانوي إلى بيئة التعليم الأساسي ضنا بكرامتي وخوفا على نفسي من الأذى؟ أليس الصغار أقل جنونا وأيسر لراعيهم رعاية؟ بلى وربي

إنّهم كذلك! وذكرت عمي ومعارفه من الناس فلم أنشب بعد تلك الخواطر أن يمّمت شطر بيته بلا إبطاء. سارت بي الحافلة تهتز يمنة ويسرة وعلوا وهبوطا، ولم تلبث أن توقفت في شارع الحي الرئيس فنزلت منها بعد أن نقدت صاحبها أجرتها، وذكرت تفاصيل الحي رغم أنّني لم أزره منذ سنوات طويلة، ووقفت هنيّة متأملا في أكنافه، ثم أخذت سمتي صوب بيت عمي، وكان الوقت أصيلا فألفيته لدى الحديقة يسقي حيضان الأزهار ويشذب أفنان الأشجار، فقرعت الجرس فالتفت بعلائم وجه متسائل وما رآني حتى أنزل خرطوم الماء إلى محيط شجرة من الشجرات وأقبل عليّ مرحبا. الحق أنّه تغير بمرور الزمن تغيرا لافتا تمثل في ترهل كرشه وابيضاض رأسه ولحيته، وفي علامات كالخطوط المتصلة خددت جبهته وأحاطت بجانبي عينيه، إلى تغير في طبعه ورقته لازدياد عمره من ناحية، ولازدياد عمري أنا من ناحية أخرى. ولما استقبلني قبلته على خديه ورأسه، ودعاني إلى البيت مرحبا مبتسما وهو يتقدمني إلى الفراندا، ونادى أهل البيت أن يجهزوا شايا أو قهوة قبل أن نجلس، وكان على اطلاع يسير بجملة حالنا فقال:

- أهلا أحمد، أهلا بابن أخي، نورتنا والله.
- أهلا بك يا عم.
- لم تزرنا منذ مدة طويلة يوم قدمت مع والدتك في آخر مرة، بالمناسبة كيف حالها في هذه الأيام؟

- بخير ولله الحمد رغم أنّها بدأت تعاني في الفترة الأخيرة من متاعب الضغط والسكر.

- مسكينة شافاها الله وعافاها، للسن ضريبة لا بد أن تؤدى. على كل أهلا بك يابن أخي، خبرني بالله ماذا تصنع بحياتك، وهل توظفت بعد التخرج أم بعد؟

- أجل يا عماه، أنا اليوم مدرس في وزارة التربية.

قال وهو يهز رأسه معجبا:

- مدرس إذن، مهنة طيبة مريحة، أتمنى أن تكون وجدت الراحة والدعة في رحابها؟

وآلمني تمنيه الأخير، وقلت ممهدا لطلبي:

- التدريس وظيفة جيدة غير أنّها متعبة خصوصا تدريس طلبة الثانوية.

ولم أقو على مزيد من التعبير فقد عُقل لساني واعتلاني الارتباك، فجعل يقدم لي نصائح عن مهنتي وحياتي المتصلة بها، ولم يفته أن ينوّه بمكانة المعلم في المجتمع، وذكرني بأنّ النبي قال: "إنّما بعثت معلما". وبرغم تأثري الدائم من أحاديث النبي إلّا أنني لم أتأثر هذه المرة، بل لقد حنقت على عمي بيني وبين نفسي!

وقطع علينا الحديث صوت جاء من خلف باب الصالة يخطر بجاهزية الشاي، فاستوى عمي قائما واتجه صوب الباب ولاحظت عند حركته أن

ظهره صار محدودبا بعض الشيء، ثم مد يده من خلال شراعة الباب ورجعت تحمل صينية ذهبية اصطف عليها كوبا شاي تطاير بخارهما في جو الأصيل، وقدم لي الشاي قبل أن يعود إلى جلسته، ثم جعل يقول:

- عند أي شطر من الحديث كنا؟ نعم قلت إنّ النبي قال إنّما بعثت معلما، وقال أيضا إنّ الله يصلي على من يعلمون الناس، لا أدري حقا كيف قال الحديث ولكن هذا معناه، وعلى أي حال لا تنس يا بني أنّ التوظف في هذا البلد يعد من عسير الأمور في هذه الأيام فاحمد الله على أنّك نلت وظيفة بمرتب ومزايا جيدة في حين يتمنى أقرانك أن يعملوا في وظيفة أدنى منها مرتبا، ولا تنس أيضا أنّها وظيفة تعد -بالقياس إلى غيرها- قصيرة يسيرة إذ تكون في بيتك قبل الظهر في حين يقبع البعض خلف مكاتبهم حتى هذه اللحظة التي نتحدث فيها، فهل ترى أي خطأ في كلامي يابن أخي؟

وصمت ليتناول رشفة من الشاي، ولاحظت عند ذلك لأول مرة ازرقاق وجهه وابيضاض شفتيه كأنّه في بيئة مناخها متجمد، ولمعانا في عينيه الدامعتين، ولكنّني انتهزت صمته وقلت مدفوعا برغبة في معارضته للحديث، وفي ذكر الكلام المعاد عن هوان التعب الجسدي أمام التعب النفسي، وقد أمدني اليأس بأسبابه:

- كلا يا عم، ليست وظيفة محترمة على الأقل في مجتمعنا هذا، فطلبة اليوم شياطين بحق، والوزارة لا يهمها المعلم في شيء أبدا، وبيئة

المدارس بيئة كريهة صحيا ومؤذية نفسيا، والمعلمون مرضى في غالبيتهم، ترى الشخص منهم قد نيف على الخمسين يمشي في باحة المدرسة في الفرصة المدرسية ينظم جموع طلبة في مثل سنّ أحفاده، وترى مثلاء له تحسبهم أمواتا من الروتين الخانق الذي يعيشونه، كلا يا عم ليست وظيفة مناسبة أبدا.

ونظر إليّ بوجه أضفى عليه الزمن علائم اللامبالاة، وإن ارتفع حاجباه قليلا:

- لا تقل لي إنّك راغب عن وظيفتك وإنّك ما جئتني إلّا لأسعى لك في نقل أو غيره، وأنا الذي حسبتك إنّما جئت إلى زيارتي وحسب، إن كان هذا مطلبك إذن فاعلم يابن أخي أن اليوم غير الأمس، وأن جلّ معارفي القدامى هم اليوم أحد إثنين: إما منزو تحت التراب أو منزو في ركن المعاش، أقولها بحق: ليس في يدي حيلة.

وخاب أملي وفتر حماسي، فسكتّ متجهما وجعلت ارتشف بضع رشفات من الشاي في صمت طويل فيما كان المغيب يولج سمرته في الأركان، ثم استأذنت من عمّي وغادرت البيت وأنا أفكر في لمعان عينيه وفي وجهه الأزرق وشفتيه البيضاوين، وبعد نحو أسبوع -أو أقلّ قليلا- وصلنا خبر وفاته وهو نائم في فراشه، وشاركتُ في الدفن، ورأيتُ خلاله جثة لم أعهد شكلها من قبل تهيل عليها أياد مجهولة التراب.

14

حاز الزواج على الشطر الأكبر من تفكيري اليومي بعد ملحوظة من أمي خرجت من فيْها عفوا وعلى غير قصد محدد. أجل كنا يوما -أنا وهي- جالسين جلسة مسائية في ليلة من ليالي الشتاء في مساء من مساءات فبراير المثقلة بالبرْد والغيوم والمطر وسائر المظاهر الجوية، نصطلي نار المدفأة ونحمّص حبات من الكستناء فوق غطائها المسطح جنبا إلى جنب مع إبريق الشاي، فيما نتبادل حديثا عاما لم يدرْ حول موضوع محدد بذاته، تتخلله لحظات صمت تام إلّا من غرغرة غليان الشاي فوق المدفأة، ووقع حبات المطر التي كانت تتناوب قرع زجاج النافذة وتنساب عليه راسمة خطوطا مائية، والعزيف المتواصل للريح السافية في الخارج، وتنهّد حبات الكستناء فوق نار المدفأة بين الحين والحين، وكان قطعٌ في التيار الكهربائي تلك الساعة ألجأنا إلى إشعال الشموع في زوايا البيت فرسم خفقان نورها على الجدران ظلالا ممتدة تتخذ أشكال الحيوان والغيلان والطيور والجان، فطاب الحديث ألوانا بتأثير تلك الوحشة الشتائية، وذكرت أمي اتفاقا جهدها المبذول في تدبير البيت ورعايته مع تقدمها في السن، وكيف أنّ الأول يزداد صعوبة بتقدم الثاني، وقالت مبتسمة في معرض حديثها:

- ليتك تتزوج يا بني فتجلب بذلك بنتا لي تساعدني في تنظيم شؤون البيت وشؤونك أنت بدورك!

وضحكتُ في البداية ولكنّ اقتراحها ما لبث أن استرعى انتباهي، ولم تمض أيام قليلة حى نيْطت به أفكاري جميعا وبما يرتبط به من تكوين أسرة وعاطفة محضة خالصة، وصرت أتخيل زوجي وأراها رأي العين جالسة في كل ركن من البيت يقع عليه نظري، أو في المطبخ تحضّر لنا شرابا ساخنا أو غذاءً طيبا، أو في السرير تغالب النوم حتى أعود إلى البيت، فهفّ بذلك على القلب سرور عجيب، وبتّ أتحين الفرصة لمفاتحة أمي برغبتي الحقة في الزواج، وقد كنت موقنا بأنّها لن تقبل به فحسب بل وستفرح فرحا لا مزيد عليه. ماذا ينقصني حتى أحظى بزوجٍ تحبني وأحبها مثل سائر الرجال؟!.. ولماذا أشعر أحيانا وأنا أدبّر الأمر على وجوهه المختلفة باستحالة تحقيقه؟!.. وجعلت أقدّر النفقات المحتملة للزواج. البيت موجود إذ سأسكن مع أمي في نفس الشقة فلا أتحمل نفقات اكتراء جديدة[1]، والصّداق محتمل إلى حد ما فقد ادخرت جزءا جيدا من مرتبي وسوف أبذل ما في وسعي وأقتّر على نفسي تقتيرا وبذلك أضيف إليه جزءا غير قليل إلّا أنّ ذلك يستلزم وقتا أعانني الله عليه، ولكنّ أثاث البيت باهض الثمن، واحتياجاته اليومية من مطعم وملبس ونحوها واحتياجاته

[1] اكترى الشيء: استأجره.

الدورية من صيانة وطلاء وغيرها ليست في طوقي، فما العمل يا ترى؟.. كم وددت لو أن عمي -رحمه الله- ما زال حيا فأذهب نحوه مستشيرا بلا إبطاء! وهفا القلب -رغم كمّ الصعوبات- نحو الحياة الزوجية وما تنطوي عليه من الرفقة الأنيسة والصداقة الحميمة، والأسرة السعيدة والاستقرار النفسي، والنداوة العاطفية والإشباع الجنسي، وبتُّ لا أهتم لشيء في حياتي اهتمامي بها، بل استحالت هوسا لم أعد أفكر معه في شيء سواه، وصرت أنظر نحو أيّ فتاة أمر بها في طريقي نظرتي إلى زوجة محتملة، وأرهق العقل وكلّ القلب، وكم تمنيت أن أطلع أمي على مكنون رغبتي وأن أرشدها إلى بيت بعينه حتى تخطب فتاته لي! ولكنّني ترددت كثيرا في محادثتها وعقلني خجل مميت لم أستطع معه أن أنبس بحرف واحد، بل لقد قالت مرة -بعد سهرتنا الشتائية بأيام- إنّها تتمنى أن يكون زواجي قريبا فأجبت في عصبية -بتأثير من فرط الخجل- بأنّني لا أريد الزواج أبدا! ولم يكن لي صديق واحد سواها في الدنيا فأطلعه على مكنون صدري، فلجأت إلى الله بروح حزين ونفس معذبة ظمأى، ودأبت على الصلوات في المسجد -عدا صلاة الفجر- وأنا لا أفتأ أدعوه في سجودي أن ييسر زواجي ويرزقني رزقا حسنا طيبا أستعين به على هذا الشأن، وأن يستحيل خجلي المميت إلى جرأة غير مسبوقة عند أحد من البشر! وعند ذاك ذكرت الجرأة التي يتطلبها الزواج من يوم الزيارة الأول -بما يستلزمه من لباقة وتقاليد تعارف- حتى يوم المعاشرة الجنسية -بما يستلزمه من قدرة جنسية وفضّ

للبكارة- فداخلني خوف كبير، وشككت في قدرتي على أيّ من الأمرين، لذلك عشت عذابا متصلا بين عجزي النفسي وعجزي المادي كأن بينهما سلكا حادا داميا نيطت به رقبتي فهو يشد يمينا تارة ويسارا أخرى في بطء شديد فيحزها حزا أليما!

ومرة أتممت صلاة العصر في المسجد، وظللت جالسا حتى انفض أغلب المصلين، ثم أقعيتُ وبسطت يدي صوب السماء أستجدي معونة الله ورضوانه ورزقه وتيسيره، ولا أدري كيف سالت عبرتي ولكنّني أحسست بملوحتها على شفا الفم ثم بأرجحتها عند أصل الذقن، فمسحتها مرتبكا ورأيت عند ذاك شيخا مكتهلا قد نيف على الستين ينظر نحوي متفكرا تعلو شفتيه ابتسامة حزينة، وعطفت عيني عنه ثم ساقني الفضول إلى النظر إليه مجددا فعاودت النظر، وما التقى بصري ببصره حتى أشار إليّ بيده أن أدنو منه، فاستغربت طلبه ولكنّني دنوت على استحياء وصافحته، ثم جلست بين يديه متربعا. كان أزهر الوجه يعلوه نور سماوي ويحيط به شعاع وهّاج إحاطة الهالة بالقمر، وتفترش لحيته البيضاء صدره العريض، ويعتمر طاقية بيضاء تطيف برأسه، وقال متسائلا حال جلوسي قبالته وفمه يزداد ابتساما:

- أهلا يا بنيّ.
- أهلا أيّها الشيخ.

ومسح بكلتا يديه على وجهه ثم سألني:

- أراك تزور المسجد في الآونة الأخيرة كثيرا فهل أنت من أهل الحي الجدد أم أنك من القدماء العائدين؟

وخجلت من سؤاله، ويبدو أنّه لاحظ خجلي فقال على الفور:

- ليس المهم متى تصل ولكن الخطو على الطريق الصحيح مريح!

ولم أفهم إلام يرمي غير أنّي قلت وأنا أهز رأسي دليل الموافقة:

- صدقت يا سيدي الشيخ.

وابتسم مجددا وهو ينظر في عينيّ بنظرة خلتها حزينة منكسرة، وسألني:

- إغراقك في الدعاء والدمع منذ قليل جذب انتباهي.

وصمتَ قليلا وقد رفع سبابته مشيرا إلى السماء، ثم تابع:

- هو موجود فألح عليه بالطلب، وما من بأس في أن تذرف الدمع فهو يطهر القلب؛ فما الدمع إلى نتاج تكاثف أبخرة استثارتها من الصدر همومه وآثامه، فروح عن نفسك به بين الحين والحين.

ثم أطرق برأسه وجعل ينقل إبهامه على سائر أصابعه تباعا وهو يوسوس بتسبيح تعالى معه حرفا السين والصاد، وقد انشرح صدري له وشعرت إزاءه براحة عجيبة فتبسطت معه في الحديث. قلت:

- يا شيخي الكريم، إنّي في صميم الحاجة إلى...

فقاطعني وكأنه قدر تتمة كلامي، وقد بسط راحته في وجهي:

- طرقت الباب منذ قليل فإيّاك أن تطرق بابا غيره، ولا ترجع عنه حتى يفتح لك، وإن لم يفتح لك أبدا فاعلم أنّ هنالك حكمة خافية!

- ولكن ما الحكمة الخافية في...

وبسط راحته في وجهي مجددا وقد طأطأ برأسه مستغفرا. واعتلاني حياء، وجعلت أتأمّل وجهه المستنير وهو في إطراقه، ومرّت من أمام المسجد سيارة تضج بأغنية مبتذلة، وعلا صوت شحاذ يستجدي الناس: "لله يا محسنين". وسعل الشيخ فعرضت عليه أن أحضر له ماءً فقال:

- أحضره لنفسك يا بني إن استطعت، فأنت أحوج له مني!

وازداد تعجبي من حديثه المبهم، وكدت أستوضحه عنه ولكنّه نظر إليّ نظرة غريبة وكأنّه يراني للتو واللحظة، وقال متراخيا في نبرته:

- لنعد إلى حديثنا، قلت لك لا تسله من الدنيا شيئا فإنّك لو حزتها جميعا ما دامت لك، هذه هي الحكمة!

- لست أسأل إلّا كفافي أيّها الشيخ الجليل، أريد الزواج وتكوين الأسرة، فهل هذا بالطلب العسير؟

- أستغفر الله، ليس من شيء عسير عليه، طلب سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فناله حقا، غير أنّه زال جميعا فأين هو الآن؟ وكان قارون أعظم أهل الأرض ثراء ولكن القروش القليلة التي في جيبك الآن تعادل ما كان في حوزته كافة، هذا مقصدي وهو مقصد واضح.

وازدادت حيرتي إزاء غموضه ولكنّني كنت أشعر بانجذاب غريب إلى حديثه الملتفع بظلمة الألغاز، فقلت:

- انصحني يا شيخ.

- كيف أنصحك وأنا لا أملك لنفسي نصحا؟!.. كالشحاذ الذي في الخارج يسأل إحسانا من أناس لا يحسنون إلى أنفسهم!

- تعبت من الحياة فماذا أفعل؟

- صلّ ركعتين.

- أصلي كل يوم يا شيخ، إنّي على حال من الحزن شديدة، وقد أُخذتْ عليّ كل السبل، وسدت في وجهي المسالك.

- صلّ ركعتين.

- وظيفتي لا أحبها. النفس مهمومة أبدا. الزواج مطلب عسير.

- صلّ ركعتين.

وصمتُّ متأملا، ورافق سكوتي سكوته حتى قطع الصمت:

- قم يا بني فصلّ.

ونضهت حيال إلحاحه، وما أدبرت عنه حتى ناداني:

- يا بني.

فالتفت إليه، فقال:

- ازهد فيما ترغب من الدنيا وارغب فيما عنده تكن أسعد الناس، وإذا لم ترض بما عندك الآن فلن ترضى عن أي شيء سوف تناله في مستقبلك، واقنع بأن ما أنت محروم منه لم يكن لك من الأساس، وثق بأنّك إذا حزت القناعة فلن تحزن على شيء فاتك.

وابتسمت له ثم مضيت متفكرا في جملة حديثه. اقنع بأن ما أنت محروم منه لم يكن لك من الأساس؟ إذا لم يكتب لي شيء من الدنيا! وتوجهت إلى القبلة طيّب النفس كأنني لم أشكُ هما ولا غما، وصليت ركعتين استشعرت فيهما روحانية لم أعشها من قبل، وما أنهيت الصلاة حتى نظرت إلى مكان الشيخ ولكنه كان فارغا، وجعلت أبحث عنه في أنحاء المسجد غير أنّني لم أقف له على أثر! ترى أين ذهب؟!.. وهل كان موجودا من الأساس؟!.. وانتشلني من حيرتي أن أضاء رجل -من القلة الجالسين- نور المصابيح ثم نظر نحوي نظرة مستفسرة لم أبالها كثيرا، وحانت مني التفاتة إلى ساعة الجدار فلاحظت أنّها كانت تدور في رحى الخامسة، فنهضت وخرجت من المسجد متعجبا من شأن الشيخ واختفائه الغريب، وعند بوابة المسجد الخارجية رأيت الشحاذ، وكان مبتور اليد يستند بظهره إلى الحائط الخارجي الأيمن، وتسترسل لحيته حتى منتصف صدره تعلوها قذارة ظاهرة، وما مررت به حتى خاطبني وهو يمد لي يده الأخرى السليمة:

- لله يا محسنين.

فنظرت في وجهه معتذرا وقلت:

- الله يعطيك.

وواصلت سيري في طريق البيت، وما ابتعدت قليلا حتى استرعى وجهه اهتمامي، إنّه وجه مألوف لي فيا ترى أين رأيته قبل الآن؟!.. ومضيت في

طريقي متفكرا فيه، وحانت مني التفاتة صوبه فرأيته منكّسا رأسه متقوقعا على الأرض، فيما يقوم رجل قصير القامة أمامه يقرعه تقريعا صابا عليه جامّ غضبه، ولم أعلم فيما ذلك فقد كنت بعيدا عنهما بحيث لا يصلني صوتهما إلّا أنّني وقفت على انفعالات الوجه وإشارات السبابة المهددة فتمثل لي الموقف صورا بلا أصوات، وأوغلت في المشي في طريقي نحو البيت، وانا لا أنفك أتساءل: ترى أين رأيته أين؟!..

وما اقتربت من البيت حتى ذكرته: أجل إنّه أبو الرجا، بلطجي وسط البلد!

15

كبرت أمي، ورقّ عظمها، وأخذ المشيب يدبّ إلى رأسها دبيب النار في الهشيم، واعتلّت صحتها اعتلالا واضحا للعين تبدا في ثقل الحركة وأوجاع المفاصل والعظام، وصارت زيارتها للطبيب دورية حيث عانت كذلك من اضطراب الضغط بين الصعود والهبوط، ورغم ذلك كله لم تفتر لها همة في أداء الواجبات البيتية، وفي رعاية شؤوني مع أنني كنت أهدف إلى الثلاثين في ذلك الوقت، فكانت تفيق من نومها عند الفجر حينما ينادي المنادي للصلاة، وتأتي قدما لتطمئن على نومي، وكثيرا ما أفقت على وقع قدميها أو على صوتها الخافت وهي تقرأ الأذكار والقرآن الكريم، ثم تتوضأ وتقبل على السجادة لتؤدي فرضها، وتؤديه بخضوع وخشوع طويلين، ثم تقتعد الأرض[1] وتنشأ في ذكر الله بانتظام مع تتابع أصابعها على حبات المسبحة، وما أن تفرغ من الذكر والدعاء حتى توقظني، وكانت عندها تتركني على فراشي بين الوسن واليقظة وتتجه إلى المطبخ لتحضير الفطور، ولا تفتأ في نفس الأثناء تنادي عليّ المرة تلو المرة حتى أستفيق تماما، فأنهض وأغسل وجهي ثم أصيب معها الطعام.

1 اقتعد الشيء: اتخذه مجلسا.

ويوما كانت تغسل الثياب فيما كنت مستلقيا على فوتاي الصالة أتابع التلفاز، وبينا أنا كذلك إذ تناهى إلى سمعي وقع ارتطام شيء على الأرض رن رنينا كأنه جسد أجوف، فناديتها فلم ترد جوابا فاستويت قاعدا في جلستي والقلق ينداح في صدري، وكررت النداء ولكن ما من مجيب حتى الصمت لم يردد صدى ندائي، فاتجهت من فوري في عجلة ولهوجة إلى مصدر الصوت فوجدتها ممدة على وجهها تنتثر أمامها الملابس المغسولة فأيقنت بأنها لم تستطع حملها فتعثرت، وأقبلت عليها مذعورا واحتملتها وعند ذاك وجدتْ ألما في كتفها فصرخت له صراخا شديدا، وأسقط في يدي فلم أدر ما أفعل، فوقفت حائرا مذعورا، ولما رأت حالي استندت علي وهي تصطنع الابتسام كأنما أرادت أن تخفف من ارتياعي، وقالت إنه ما من داع للقلق وإنها ستكون بخير، ولكن وجهها كان يتعرق ويحتقن فأدركت مدى ألمها، وقدتها إلى السرير عبر حجرات البيت ومددتها عليه في رفق علها تجد بعض الراحة، واستوت فوقه وأغمضت عينيها كالمتعبة وصدرها يهبط ويعلو والصفير يتردد في جوفها تردد السوافي[1] في الهيكل الخرب، ثم فتحتهما ونظرت -في جمود وذعر واستغراب- إلى الزاوية اليمنى من السقف كأنما ترى شيئا غريبا، فناديتها ولكنها لم تجب، وبغتة نظرتْ إليّ مستردة نفسها من عالم غيبي لا يعلم عنه أحد من الأحياء شيئا إلا من كان مثلها على شفاه، وقالت لي وقد ركبني الذعر على أثر قولها:

[1] مفردها سافية: وهي الريح

- أشعر بألم فظيع كأنن روحي تفارق جسدي.

ثم طلبتني كأس ماء ودواء مسكنا، فقلت لها وأنا أربت على ظاهر كفها بباطن يدي في رفق ولين:

- حاضر، سأجلبهما، ولكن لا بد مما ليس منه بد: سأتصل بالإسعاف حتى يأتوا وأطمئن عليك كل الاطمئنان.

قالت في جهد واضح:

- الصداع سيشطر رأسي نصفين، وأحس بأن جسدي مخدر بالكامل، ولكنني سأكون على خير حال بعد أخذ المسكن والنوم قليلا، ولست أرى أي داع للإسعاف يا بني.

وجعلت ألح عليها فنهرتني في نرفزة واضحة، وهدأت من روعها وأنا في حاجة إلى من يهدئني، ووافقت على رغبتها مداريا فقد أكل الخوف صدري، لذلك اتجهت من فوري إلى الحجرة المجاورة حيث التليفون، واتصلت بالإسعاف وجعلت أصف لهم الحادثة والحالة التي تعاني أمي منها وموقع البيت تفصيلا، ثم جلبت كأس الماء والدواء من الصيدلية المنزلية وعدت إلى حجرة أمي ولكنني وجدتها نائمة، ولم أشأ أن أوقظها فوضعت كأس الماء وحبة الدواء على الكنصول بجانب رأسها وخرجت، وجعلت أذرع الصالة في ذهاب وعودة حتى سمعت صوت الإسعاف فنزلت عبر الدرجات مسرعا إلى الشارع لأستقبلهم، وعدت وإثنان يحملان حقيبة عقاقير وأدوية، وشرعت أمامهما باب البيت وأنا أرشدهما إلى حجرة المريضة،

فدخلا وتبعتهما على الأثر، ومرّر أحدهما إبهامه وسبابته على رسغ أمي متحسسا في تكرار متتابع، وأشار بغتة للآخر بأن يحضر المحفة على وجه السرعة ففعل دون إبطاء، وأصابني لتغير هيئتهما قلق وتوتر، ورجع الثاني وطلب منّي الأول أن أعاونهما في رفع المحفة بعد أن هيّأها للنقل، ثم رفعناها وجعلنا نهبط درجات السلم حتى سيارة الإسعاف والكآبة ترين على أركانه، ووجدت أسفل العمارة أناسا أعرفهم وأناسا رأيتهم من قبل وآخرين لا أعرفهم، وكانوا جميعا مجتمعين والفضول وحب الاستطلاع المشوب بالخوف يطفر من أعينهم، ولا أدري لماذا تذكرت ساعة وفاة شقيقي خالد. وبلغنا المشفى فأدخلوها غرفة الإنعاش، وطلبني طبيب أن ألحق به فتبعته وأنا أتوجس خيفة، ولما صرنا في بهو المشفى نظر إليّ دون أن يمعن في وجهي وطلب مني -بعد أن ألم بوظيفتي واسمي وشأني مع المريضة- أن أحدثه بما كان، فنفضت له جملة الأمر، وطالعني حينها بنظرة معزية وجعل يقول وكأنّه يعرفي حق المعرفة:

- أنت رجل مؤمن، والله يبتلي عباده الصالحين، شدّ حيلك، رحمها الله رحمة واسعة.

وصمتَ قليلا فنظرتُ إليه مشدوها، ثم تابع حديثه:

- وليس سبب الوفاة سقوطها ألبتة، ولكنّ المرحومة تعرضت لسكتة دماغيّة في أعقاب ارتفاع مفاجئ لضغط الدم.

وشعرتُ عندها بارتياح عابر من تبريره سبب السقوط فبذلك لا يقع عليّ في حقها تقصير، بيْد أنّي خجلت من نفسي خجلا شديدا، وحل محل الارتياح شعور بالحزن عميق.

وتمت إجراءات تقييد الوفاة، وغُسل الجثة، ثم كان الدّفن، ووارياناها التراب، وقام على قبرها واعظ يذكر بالآخرة والرؤوس من حوله تهتز صعودا ونزولا في اتعاظ وقتي، وما انتهى من وعظه حتى انفض غالبية الآدميين فيما تكأكأ جمع حول قبرها يقرؤون الفاتحة ويدعون لها، وطالعت في تلك الأثناء فناء المقبرة بوحشته السرمدية وقد عبق جوه برائحة نبات يبس مهمل، واستكنّتْ القبور فيه تحت صمت ناطق وهدوء صاخب، وانتثرت في أرجائه بتلال أزهار هرستها الأقدام، ثم حانت مني التفاتة إلى سوره الشرقي فرأيت عند أقصاه قبرا قديما مبنيا على الطراز العثماني، بلا أية معالم من شاهد أو نحوه. ترى من صاحبه؟!.. أغلب الظنّ أنّ عمر هذا القبر ينيف على مئتي عام فماذا كان يعمل في حياته؟!.. وهل تهالك في الحب يوما؟!.. وكيف حاله في هذه اللحظة؟!.. وأين ذهبت آلامه واحلامه؟!.. وواتاني خاطر غريب بأن أكشف قبر أمي، وتساءلت أن لو قيّض لي ذلك فهل سأرى شيئا، وإذا رأيت شيئا فهل سأعرفه، وإذا عرفته فهل يجذبني إليه الحنين الباكي أم سأفر منه خوفا أو ربما تقززا؟!.. وغادرت المقبرة ونظرات الشفقة تتحلقني. لم أعرف أحدا من المشيعين

حقا، وربما لا يعرفني منهم كثير، ما أنا إلّا غريب. لكن هل يا ترى عرفني أحد من أهل تلك القبور؟!.. وقفلت إلى البيت.

واستقبلت في الأيام التالية ليوم الوفاة زوارا ومؤسين من الأقارب الأبعدين وزملاء العمل والجيران، ولم أعبأ كثيرا بغدوهم ورواحهم فقد انتابني شعوران نقيضان، ومرت تلك الأيام في خير حال نفسي لم أتوقعه حتى كفّ الناس عن الزيارة فلم أفتأ بعدها أذكر أمي وأندبها في كل حين وساعة، وأجد حزنا ووجدا في القلب نغّصا عليّ العيش، وجعل قلبي يبكي في صدري ويعزف ألحانا جنائزية، وها هي أوراق الخريف في الشارع تتساقط متتابعة كأنما هي دموع الأشجار.

لقد حكم عليّ موت أمي بوحدة جبرية تضاف إلى معجم الوحدة الذي ألفته في سنين حياتي، ولم يكن ثمة من تسليات للوحدة إلّا بتذكر حديثها والتفرج على صورنا معا وأنا أتشبث بثوبها صغيرا لا يعلم بعد شيئا عن مأساة الحياة، أو وأنا أعلو منكبيها في سعادة ظاهرة، أما حينما كنت أخلو إلى نفسي فقد صارت تلك الوحدة تفرض ثقلا في الوقت وأنا أرزح تحت وطأة الإحساس بالخواء، وتزوّر لي خيالات وهمية من قبيل ما كنت أسمعه -في الأيام التي أعقبت العزاء- من نداءاتها عليّ فأهبّ لتلبية النداء ولكنني أذكر ساعتها أنّها غير موجودة في الشقة، بل غير موجودة في الدنيا بأسرها، فكأنّما روحها تطيف بالأركان. وتراكمت مع الوقت الثياب المهملة التي تحتاج الغسيل، وعلت طبقة من الغبار الأثاث الخشبي حتى بدا مكسوا

بغلالة رقيقة من القماش المعصفر، وفاحت الروائح النتنة للأطباق غير المجلوة من المطبخ، فبذلت جهدا كبيرا في تنظيم الأمور المنزلية، وكم أحسست بالجهد الذي كانت تبذله في حياتها على كبر سنّها فتألمت لفقدها ألما عظيما!

وجلست مرة والمغيب يهبط رويدا في فراندا البيت متأملا متطلعا إلى الأفق، ومرّ أمام عينيّ شريط حياتي مع أمي من مبدئه إلى منتهاه، وذكرت بغتة ما جرعها إيّاه زوجها السابق من الذل والهوان فانشق قلبي عن جملة من الحفائظ[1]، ورأيت على الطوار المقابل حبلا معلقا بعمود نور يجيء ويذهب مع حركة الهواء الواني فتماثل لي آخية[2] من شدة الحزن واليأس، ولبستني حال غريبة جعلت معها أصكُّ على أسناني وصورة عبد القهار -زوج أمي- لا تفارقني، ودخلت الحجرة وارتميت على الكنبة، ولا أدري كيف استرق الغُمْض[3] خطوه إلى عينيّ ولكنني نمت نوما عميقا فيما أظن، وراودتني خلال نومي كوابيس دموية، وطاردني جمع من الناس بالفؤوس والحجارة، وكان الجمع يشتمل على الشيخ عبد القهار وبشر لا أعلم على أيّ أرض من الكرة يعيشون! واستيقظت في منتصف الليل تقريبا متعب الجسد والنفس بعد نوم مزعج لم يجلب لي أيّ راحة، وقد

[1] الأحقاد، ومفردها حفيظة.

[2] الآخية: حبل المشنقة.

[3] الغُمْض: النوم.

هالني ما حلمت به حيث تهيّأ لي -لثواني معدودة- أنّه حقيقة وواقع فأحسست بسقوط قلبي من صدري، ثم ارتحت بعض الشيء عندما صفق الهواء مصراع النافذة إذ علمت حينها أنّني استيقظت من شريط مؤلف من الكوابيس، وكنت مبللا بالعرق فاتجهت لأخذ حمام بارد حتى تهدأ أعصابي، ثم أصبت بعض الطعام، وحاولت بعدها أن أرجع إلى النوم ولكنّني ظللت مسهّدا حتى أذّن الفجر، ورأيت خَصاص النافذة ينضح بنور الشمس على حين فجأة فأيقنت أنّني نمت قليلا، وقمت عندها منهكا وأعددت شريحة بيض وفنجان قهوة وتناولتها ثم هبطت بعدها إلى الشارع لأروّح عن نفسي بالسير، واندفعت خلال سيري إلى دكان ابتعت منها علبة سجائر وجعلت أدخن مستلذا وأنا أواصل المشي في الشارع دون هدف واضح أستبينه، واستحال الجو إلى الدفء قليلا في ذاك الوقت رغم أنّ دفأه شيب بهواء لطيف بارد، وأوقفت تاكسي على غير وعي، ولما صعدت سآلني سائقه عن وجهتي فأشرت إليه "إلى ماركا الجنوبية"! لم أبيّت قرارا للذهاب إليها ولم أوطد عزما مقدما، بل لم أحدث نفسي بزيارتها أبدا فما الذي ساقني إليها؟!.. لست عالما بالذي دفعني نحوها تحقيقيا ولكنه في مرجعه دافع نفسي باطني غريب، انبثق من الأعماق وسيطر على الحواس وشمل العقل والفكر حتى شلهما عن أي شيء آخر.

وأنزلني التاكسي عند موقف سرفيس المحطة فجعلت أجوس خلال المنطقة، وذكرت أنّ الشيخ عبد القهار يسكن في ضاحية من ضواحيها ما

من ذلك بد، ودبّ في النفس حماس وانفعال عجيب خلت قلبي سيخرج معه من صدري، ومرّ أمامي رجل كبير السنّ يدب على عصاه، ولا أعلم كيف أوقفته ولا أعلم أيضا كيف سألته عن بيت الشيخ ولا لماذا فعلت ذلك! ولكنه أجابني بأنّه لم يسمع به قبلا، وساءلت بعده من صادفني من النّاس في إلحاح غريب حتى هداني إليه شخص بعد عناء قائلا:

- ياه! كنت أعرفه قبل زمن طويل، الشيخ الورع العفيف صاحب الفضل على النّاس جميعا، كان يقطن في شارع الطيبة بالقرب من مسجد أصحاب الرسول، هذا ما أذكره ولست أدري من أخباره اليوم شيئا. اقصد المكان فإذا كان انتقل فاسأل الجيران المجاورين فلا بد أنّهم يعرفون مكانه الجديد.

ودهمتني حقيقة فضله على الناس، أهذا صاحب فضل على أحد! لماذا إذا ارتضى أن يعاملنا بالصورة التي عاملنا بها؟!.. ما أعجب عوالم البشر! وشكرتُ الرجل ثم اتجهت من فوري إلى الموقع الذي وصفه لي وجعلت أسترشد بالنّاس في طريقي حتى اهتديت إلى البيت، ولم أكن أتصور أنّ المسعى سيكون سهلا؛ فما بلغت المكان حتى رأيت رجلا يخرج أحمالا من سيارته وقد تلفع بلفحة وقلنسوة اتقاء برد الخريف، فأردت سؤاله عن بغيتي فاتجهت نحوه وحييته مسلما فالتفت إليّ رادّا سلامي، وبوغتُّ عند رؤية وجهه وشلني الصمت، إنه هو! وطالع وجهي مستغربا صمتي، وتساءل:

- أيّ خدمة؟

فاعتذرت منه وأنا لا أملك أعصابي:

- المعذرة، ظننتك شخصا آخر.

وانسحبت من موقفي حرجا وهو يهز بيديه متعجبا، وانزويت في مكان لا يراني منه قبالة البيت والدم يتدفق إلى صدغي حارا مزعجا. شدّ ما هزل وثقلت حركته فهل اختلفت طباعه كما اختلف نشاط أعضائه؟!.. ترى ما الذي أخرجه في مثل هذا الوقت من الصباح؟!.. وهل يغفر الله له إذا ندم عما فعل وتاب؟!.. كم أقلقني هذا الخاطر الأخير، وكم وددت في تلك اللحظة أن أهشم رأسه كما تفعل عوامل الجو بالصخور! ولم يلبث أن دلف إلى منزله فحفظت البيت وزواياه وأركانه وأكنافه، ثم جعلت أضرب في الأرض أسير على غير هدى متفحصا المعالم التي تقع عيني عليها حتى صادفت خمارة، ووقفت أمامها وصدري يموج بانفعالات شتى غريبة، وناداني صوت داخلي أن أقبل وانهل منها فهي الدواء اليوم، ولكنّني أجّلت الفكرة إلى الليل علّني أكون أصفى بالا وأهدأ فكرا.

* * *

ورجعت ليلا إلى المنطقة واندفعت إلى داخل الخمارة برغبة خفيّة لذيذة، ولم يكن فيها في تلك الساعة إلّا صاحبها ورجل آخر أنيق الهندام حليق الذقن يجلس على طاولة في يمينها ويبدو على حال من السكر شديدة، ورغم أنّه نظر إليّ حال دخولي إلّا أنّ نظرته كانت غائبة لم تر مني

شيئا فيما أظن، ثم طالعني صاحب الخمارة مستفسرا مرحبا، فاتجهت نحو طاولته ونقدته مالا دون أن أنبس بحرف واحد فتعجب لشأني، ولكنّه سألني أي نوع من الخمر أرغب فيه تحديدا؟ فوقفت متوترا مرتبكا ولكني ذكرت الفودكا ولا أظنني سمعت بنوع غيرها من أنواع الخمر، فقلت:

- أريد فودكا لو سمحت.

فسألني:

- أي نوع منها.

- قلت لك الفودكا.

فابتسم ساخرا:

- للفودكا أنواع كثيرة، فأي نوع تقصد على وجه التحديد؟

وارتبكت وازداد توتري، وجعلت أطالع القارورات المختلفة كأنما أتفحصها، ولما رأى ارتباكي واكفهرار وجهي قال:

- يبدو أنّك غير خبير في مجال الخمور أبدا، وأنّ هذه هي المرة الأولى لك.. هه؟. قل لا تخجل. الفودكا ثقيلة على الرأس، مرّة الطعم، ولن يكون في وسعك تحمل عاقبة شربها، وفي رأيي فإنّ حالك يستلزم نوعا آخر أقل كحولا، وعندي طلبك ألا وهو النبيذ الأحمر، رخيص الثمن نسبيا ولن تعدم من أثره تسلية تنسيك مشكلات الهم والفكر، ولكن حذار أن تفرط كبداية. ما رأيك؟

ثم انشغل عني بزبون آخر دخل وهو يغني "على كيفك ميّل" ويتمايل مع غنائه يمنة ويسرة. لم أشأ أن يطول موقفي هذا أن تقع عليّ عين، أو أن يغلبني التردد على أمري، فابتعت زجاجة من النبيذ الأحمر كما أشار عليّ، وخبأتها في مغلف محكم وعدت أتابع السير مدة ليست بالقصيرة، ثم انتبذت مكانا قصيا لا يمرّ به مار، ولما اطمأنيت إلى أعين الرقباء فضضت سِدادَ القارورة وقربتها من أنفي فشممت رائحة حامضة على الأثر، وانتابني خوف وتردد غير قليل غير أنّي نبذته وقربت الزجاجة من فيّ وجرعت جرعة لم أشعر بتأثير لها، وذكرت كلام البائع عن أنّها قليلة الكحول فارتحت شيئا ما، وجعلت أجرع جرعات متتابعة وقد راقني مذاقها الذي جاء على خلاف ما توقعت، وأتيت على الزجاجة بأكملها، ثم ظللت جالسا لمدة لا أعلمها إذ انتابني خدر مباغت، ثم انتفثت حرارة غريبة في معدتي لم تلبث أن انتشرت في كل أنحاء الجسد، ولكنني شعرت بغثيان لويت بوزي على أثره وقذفت ما في جوفي، وحتى أبرئ نفسي حيال تقريع ضميري عزوت ذلك إلى البرد الذي اشتد في تلك الساعة من الليل، وتحاملت على نفسي ونهضت قائما وأنا من التعب في غاية، وزاد الجوع من تعبي، وما سرت قليلا حتى صادفت دكانا فدلفته وابتعت شيكولاتة وعصيرا لا أعلم كم نقدت صاحبها ثمنهما، وواصلت سيري المترنح وأنا ألتهم ما بين يدي حتى ارتحت بعض الشيء ولكن الألم النفسي ازداد حدة، ووجدتني أمام بيت عبد القهار وأنا لم أراوح به الفكر طيلة سكرتي فهل ساقني إليه عقلي

الباطن؟!.. ووقفت جامد الأطراف منقطع الأنفاس قبالته ساعة زمانية وقلبي يتمخض عن معركة عنيفة زلزلت أركانه. وتساءلت أسئلة بيني وبين نفسي لم تكن لها إجابة محددة: لم لا أقتله وأريح أمي في قبرها من عذاب ملازم طويل؟!.. لم لا أحطم فكه وأفقأ عينيه وآكل كبده؟!.. ولماذا لا أشعر بخوف ولا تردد ولا وجل ولا حصر؟!.. أهذا من بواعث الخمر حقا؟!.. ما أجدرها من مبدأ يعتنق!

وغادرت موقفي ميمما شقتي وقد اشتد البرد ساعتها اشتدادا ملحوظا، وما وصلت الشقة حتى علاني إعياء شديد، ونالني صداع مرهق قدّرت أنّه من عقابيل الشراب فلعنت الخمر وصمّمت ألّا أعاود شربها، بينما ردد الهواء أذان الفجر ليوم سبت ينقضي بلا عودة. وظللت مستيقظا مسهّدا تنتاب رأسي خواطر دامية اختفى معها ما هو حولي من العالم المحسوس، وجعلت أعد فيه مخططات مرهقة أذابت أعصابي ولكنها لم تلبث أن انهارت وعاودني خوفي ووجلي مع طلوع أشعة الشمس كأنني كائن ليلي، وخطر لي خاطر استسخفته بادئ الأمر ولكنه لم يلبث أن سيطر على تفكيري واستدنى غيره من الأفكار، أجل سأرد له بعضا من الدين القديم مما هو في مقدور استطاعتي، سأحطم زجاج بيته أو سيارته على أقل تقدير. ومضت ساعات الفجر فيما لم أستطع نوما، واستمر بي الأرق ولكنّي رأيت خَصاص النافذة ينضح بنور الصباح فعلمت أنّني غفوت قليلا وهذا ما حدث معي في الليلة السابقة، وما رأيت النور حتى نهضت

وأخذت أُعد كوبا أسود من القهوة كأنّه مصل البترول تلذذت في شربه متوانيا، ثم دلفت تحت ماء الدش البارد لأخفف ضغط القلق وحمى التفكير عن رأسي، وما انتهيت من الاستحمام حتى ارتديت ملابسي واندفعت صوب منطقة ماركا الجنوبية مجددا، ووصلت بيت غريمي وأنا من التوتر في غاية، ثم كمنت في ركن لا أُرى منه وجعلت أعاين أركان البيت وزواياه وما يقاربه من حفافيه مدة ليست قصيرة رأيت خلالها الشيخ يهبط إلى مرآب البيت ويغسل سيارته، فانكفأتُ وعدت إلى شقتي ولم أني أدبر الأمر على وجوهه المختلفة حتى اعتزمت أخيرا تحطيم زجاج سيارته. ياله من تدبير سخيف جاء تنفيذه على وجه مختلف قلب حياتي رأسا على عقب! فما جاء الليل ودخل ظلامه في كل شيء حتى هبطت إلى الشارع الرئيس وأوقفت تاكسي متجها إلى ماركا الجنوبية من جديد، وطفت -حينما وصلت- في الأزقة والشوارع حتى اطمأنيت إلى أنّني في خفاء من أعين الياقظين، وارتديت قفازات كأنني مجرم متمرس مقبل على جريمة يحذرها، ثم ذكرت الخمر ونشوتها فجأة فتلاشى تصميمي بألا أقرب الشراب مرة ثانية، فاتجهت إلى الخمارة التي زرتها سابقا والتي شهدت طورا مهما من أطوار حياتي انبثق في داخلي خلال سويعات قليلة، ما أجدر داروين بدراسته ونقده وتحليله! إنه طور خطير حقا يمكن أن يلعب دورا في اختلاف الأجناس، أو أن يكوّن فصلا قائما بذاته في كتاب أصل الأنواع! وعببت من الخمر رغم تعب أعصابي، ولم تلبث حرارتها أن اندفعت إلى

أجزاء الجسد وشملت أعضاء النفس إن كان لها أعضاء، ثم انتقيت حجرا صلدا حادّا من أحجار الأرض وسرت صوب الهدف غير عابئ بإخفائه، وما طالعني المنزل حتى زحف الخوف إلى قلبي، ومن حسن الحظ أنّ المرآب كان مفتوحا على أكمله فتفاديت جلبة فتحته، ووضعت الخمر على سور يحيط بأرض خلاء على مقربة من البيت ثم انسللت صوبه في الظلام كأنني قط، عابرا الشارع الفاصل بين البيت وما يقابله، ومحكما قبضتي على الحجر حدا بلغ معه أن تأذت أصابعي رغم ارتدائي للقفازين. تبدت حواف السيارة تلمع في الظلام، وأقلقني اصطفافها في عمق المرآب وبصورة مخالفة لما رأيتها عليه في المرتين السابقتين إلّا أنني كنت موطد النفس على ما اعتزمته بحيث لم أتردد أبدا، فضلا عن تأثير الخمر الساحر، ودلفت المرآب وأنا ألتفت يمنة ويسرة، وانبعثت في السماء تلك اللحظة تضاعيف السحب، ولمعت نجمة وحيدة من فرجة انشقت بينها، وهب الهواء خفيفا جافا باردا كالنسيم، وانطلق مواء قطة غير مرئية تبعه صوت ورق جاف يبس يتدحرج على الأرض. صرت قبالة السيارة، وترددت عند ذلك قليلا غير أنّي رفعت يدي لأهوي بالحجر على زجاجها الخلفي ولكنّ صوتا جاء من ورائي متسائلا في فزع "من هناك!" فالتفت نحو الصوت ولما أنزل يدي بعد فإذا به عبد القهار ليس غيره، واقترب مني متفحصا في تجهم فما كان مني إلّا أن هويت بالحجر على رأسه فانشق وتدفق منه الدم تدفقا متتابعا. لقد فكرت في قتله حقيقة إلّا أنّ معقولية ذلك لم تطرأ لي على بال، بل ما

أعجزني عن هذا الفعل فكيف استجدت الأمور واتخذت هذا المنحى؟!.. وكيف تمالكت نفسي وأنا أهوي بالحجر على رأسه؟!.. ودار بي الفضاء، ثم حانت مني التفاتة أخيرة إلى المسجى بجانبي فرأيت مقدم رأسه وقد تهشم، أما وجهه فقد تقلصت ملامحه، فيما أحاطت به بركة دم يتصاعد منها البخار الحار، وخلت أنّ عينيه جاحظتان تحدقان فيّ فصار جسدي يرتجف جميعا كأنه ورقة في مهاب الريح، ولكنني ضبطت أعصابي رغم شدة الخوف ووليت أفرّ هائما على وجهي وأنا أشعر بغثيان كالمرض، ولما أوغلت مبعدا في الشارع حانت مني نظرة فيما ورائي وارتحت شيئا ما لخلوه التام. ترى هل مات على الأثر؟!.. وهل شاهدني أحد من نوافذ البيوت المجاورة؟!.. وكم بقي على أذان الفجر؟!.. وراودني خاطر مرعب في أن الضربة لم تقتله، وفي أنّه تعرف إليّ، لذلك قد أزج غدا في السجن أو قد يُقبل أبناؤه وينهالون عليّ ركلا ولكما. وواصلت السير وأنا لا أرى شيئا مما أمامي كأنني كنت أسير بين تلك الأفكار، ولم تمض دقائق حتى مر بي تاكسي فأوقفته مشيرا بيدي، وانتبهت في تلك اللحظة إلى أنّي ما زلت أرتدي القفازين فازداد خوفي واضطرابي ولكنّني لم أشأ نزعهما أن يظن السائق بي الظنون، ومن حسن الحظ أنّ الجو كان باردا فانتحلت لذلك عذرا، وأغفيْتُ قليلا وأنا بجوار السائق، وحلمت أنّني كنت في الشقة وأنّ جرسها رنّ فابتدرت الباب فإذا به السائق نفسه وقد انقلب شاهدا يدل الشرطة عليّ فاقتحموا المنزل تحت تهديد السلاح، ثم رأيت نفسي بغتة جالسا على

طرف السرير ودق الجرس أيضا فابتدرت الباب وإذا به عبد القاهر يحيط به جمع من رجال الشرطة وهو يشير إليّ بالبنان. لقد كان حلما طويلا حقا ومتشعبا ولكن هذا ما أذكره من تفاصيله. وجفلت من نومي على صوت السائق يناديني، وفتحت عينيّ على الطريق ولم أر منها إلّا خيالات مميعة إذ كانت الغيوم قد ارفضت عن أمطارها المنهلة رغم أن الوقت كان خريفا، وفطن السائق إلى توتري فقال:

- هدئ من روعك يا رجل، أعتذر على إيقاظك حقا ولكنّك صرت تهلوس في نومك هلاوس غريبة.

وجف حلقي وأنا أطالعه فاغر الفم، ثم ساءلته خائفا مرعوبا:

- أهلوس؟ بم كنت أهلوس؟ جسدي مهدود من العمل والأحلام الغريبة تطاردني دوما، وقد زرت أكثر من شيخ أجمعوا كلهم على أنّني معيون!

- شافاك الله وعافك.

وصمتَ مركزا في الطريق أمامه، ولكنّني لم أرتح لصمته فعدت أسأله وأنا أتظاهر بالهزل:

- لم تقل لي بم كنت أهلوس.

- نسيت أغلب كلامك فلا تجزع، ولكني وقفت لك على سر خطير.

قال جملته الأخيرة وهو ينظر إليّ غامزا بعينه. زحف الرعب على قدميّ كالشلل، وغاب سواد عيني من شدة الرعب، وتمنيت لو أنّ الحجر لم تزل معي فأهوي بها على أمّ رأسه، ولكنّه أراحني من عذابي عندما استطرد:

- اسمها وفاء، هه؟ أراك متدلها في حبها.

وكأنّما انصب عليّ ماء بارد. ولكن وفاء؟!.. لم تعد تخطر لي على بال إلّا بين الحين والحين في تخيلاتي الشهوانية، فما الذي استدعاها إلى الحلم؟!.. ولماذا لا أذكر أنّي حلمت بها؟!.. يبدوا جليا أنّها تستكن في ركن من أركان اللاوعي كأنّها رغبة مكبوتة! ووصلت أخيرا إلى الحي فنقدت السائق أجرته ونزلت على مبعدة يسيرة من الشقة.

16

وقبل أن أدخل الشقة سرت جيئة وذهابا على الطوار المقابل للعمارة حتى اطمأنت نفسي إلى إقفار الطريق من الناس، فاتجهت صوب مدخل العمارة ورقيت درجاتها في ظلمة شاملة محاذرا أن يبدر مني أدنى صوت، ولما وصلت الشقة أدرت المفتاح في قفل الباب ببطء شديد ورغم ذلك شعرت بأنّ أزيزه قد زلزل الصمت، فوقفت جامدا وقد شلّ الرعب قدميّ وأناخ عليّ، ومرت دقائق خلتها ساعات ولكن بدا المبنى غارقا في ضباب النوم، فتمالكت نفسي وأدرت المفتاح دورة ثانية ففتح الباب، وعبرته إلى داخل الشقة ثم أوصدته خلفي واستندت عليه بظهري وأنا أتنهد ارتياحا، ثم جلست على الكنبة في إعياء ولكنّني رأيت القفازين فنزعتهما من فوري وسللت مقصا وأحلتهما إلى قطع صغيرة ثم رميتهما في أماكن متفرقة كالمرحاض وحوض المغسلة والبالوعة مبالغة في الحرص، ثم بدلت ملابسي وارتميت على الفراش جاف الفم وقد خدرني الهلع وسحق الصداع العنيف جمجمتي، وظللت مؤرقا مدة غير قصيرة ولكن النوم سحب ذيوله عليّ أخيرا ولم أستيقظ إلّا والشمس قد قطعت شوطا في دربها اليومي إلى الغروب، وما هالني إلّا أن طالعت الساعة فوجدتها قد جاوزت الظهر بقليل. فاتني دوام اليوم فهل ينقلب تغيبي عنه جزءا من التحقيق غدا؟!..

وطمأنت نفسي إلى أن وفاة أمي لم تجاوز الأسبوع لذلك لن يظنوا سببا إلّا عجزي عن العمل. وأعددت قهوتي كمألوف العادة، وانسلخت ساعات النهار في خوف وتوتر عظيمين نغصا عليّ، وأردت الخروج للتسلية وإراحة الفكر فهبطت عبر درجات السلم إلى الشارع، ورأيت شخصا يقف على طوار الجهة المقابلة للمبنى، يلتفع بلفحة سوداء ويضع نظارة سوداء. لقد خلته يراقبني، فما أن رآني حتى وضع يديه في جيبيه وبدأ يمشي جيئة وذهوبا كأنّه كان على انتظار. هل هو مخبر الشرطة؟!.. هل يشكون بي حقا؟!.. وما حال الجثة الآن؟!.. هل ووريت التراب أم ما زالت في ثلاجة الموتى؟!.. ونكبت[1] عن فكرة المشي وتظاهرت بأنّني على طبيعتي، وحولت وجهتي إلى دكان الحي وابتعت منها بضائع متفرقة من المعلبات والمشروبات الغازيّة، ثم خرجت من الدكان ولمحت موقع الرجل بطرفي ولكنّه كان قد اختفى! ترى أين هو الآن؟!.. وهل يتبادلون الحديث عني في حجرة ما على هذه الأرض؟.. أفظع به من خوف مميت!.. ورجعت إلى الشقة وأنا أركز النظر فيما أمامي حتى يظن خروجي عاديا إذا كان يرصدني من مكان ما. وخطر لي وأنا أرقى الدرجات أنّني مبالغ في قلقي، وأنّه لم يكن إلّا إنسانا عابرا، بل لعله لم يكن موجودا أبدا وأنّ خيالات القلق والخوف زورته لي، وكم سرني هذا الخاطر! وحدثتني نفسي بالعودة حتى أقطع الشك باليقين ولكنّني عدلت عن الفكرة.

[1] نكب عن الشيء: تراجع عنه.

ولبثت في شقتي بقية النهار على حال من القلق شديدة، وتناوبت رأسي جملة عجيبة من الأفكار والخيالات، وافترضت احتملات لم تطرأ يوما على بال إنسان، وهبّ الهواء وحرك ستار النافذة فجفلت من حركته. وما أقبل المساء حتى رنّ جرس التلفون رنينا صاخبا ردد صداه عاليا هدوء الغروب وفراغ الشقة الخالية، فتعجبت من رنينه إذ لم يتصل بي أحد منذ مدة. ترى من يكون؟!.. ورفعت السماعة وأنا أزدرد ريقي توترا:

- آلو!

ورد صوت حاد جاف متسائلا:

- بيت أحمد فايز المدرس في مدرسة "أبو عبيد الثانوية"؟

- نعم، من حضرتك؟

وتنحنح قبل أن يجيب:

- مركز أمن الهامشي الشمالي، الرجاء مراجعتنا على وجه السُرعة.

وأغلق الخط على الأثر دون سماع جوابي. تيبس حلقي وانخلع قلبي يريد الفرار من مكانه فعل الطائر المذعور في قفصه. ما الذي حدا بهم إلى الاتصال بي؟ هل أدلى سائق التاكسي بشهادة ضدي؟ ما عساهم فاعلون بي إذا وقفوا على حقيقة الأمر؟ وجعلت أراجع كل حركة أتيت بها منذ الساعة المشؤومة وأنا أضرب أخماسا لأسداس، ووقع في ظني أخيرا أنّني تفوهت بشيء وأنا بجانب السائق وأن الأخير علم بالجريمة فأفضى إلى الشرطة بكل ما سمع، وساقني التفكير المرهق والاستنباط المعذب

للتخمينات إلى الحد الفاصل بين العقل والجنون. وارتديت ملابسي ثم أسرعت بالنزول إلى الشارع ومنه استقلني تاكسي إلى المركز، وقد شعرت بأنّني استغرقت ساعات في الطريق على رغم أنّ الوقت بين شقتي والمركز لا يزيد على ربع ساعة.

وصعدت درجات المركز، واستوقفني شرطي نحيل أسمر البشرة لدى الباب متسائلا عن شأني فأخبرته به، وطلب وثيقة إثبات الشخصية فناولته إيّاها، فجعل يدون في سجل أمامه بيانات الزيارة ثم وصف لي مكتبا يقع إلى اليسار عند نهاية الممر الداخلي للطابق الثاني، واتجهت نحوه وأنا لا أملك أعصابي ولكنّني تجلدت أن يفضحني التوتر. وفي الداخل صادفت مكتبين يمينا عند الباب وآخر في صدر الغرفة، يجلس رجل خلف الأول وإثنان خلف الثاني، وطالعني الثلاثة مستفسرون وسألني الأول عن شأني -وكان ممسكا بسماعة التلفون- وخلت من صوته أنه هو الذي حادثني، فأخبرته على استحياء بأنّ المركز دعاني منذ نحو ساعة زمانية لزيارته لسبب لا أعلمه، فأمرني بالجلوس ريثما يفرغ من مكالمته، وما انتهى منها حتى أشار إليّ بأن أدنو منه ففعلت، وبادرني قائلا:

- أحمد فايز، مدرس في مدرسة "أبو عبيدة الثانوية للبنين".

وهززت رأسي موافقا فتابع حديثه:

- العمر؟

- ثلاثون عاما.

ثم صمت قليلا وجعل يقرأ في أوراق أمامه قبل أن يسأل:

- عندك علم بسبب إستدعائنا لك؟

- كلا يا بك، كما أخبرتك حال دخولي، وأرجو من حضرتك أن تطلعني عليه.

وتجاهل طلبي وتابع يسأل:

- لم تغيبت عن عملك اليوم؟

- نمت طويلا ولم أستيقظ في ميعاده، فضلا عن أنّني لم أزل حزينا على وفاة والدتي -رحمها الله- ولا أظنّ أنّ في مقدوري حاليا أن أعود إلى مزاولة العمل أو أن أمارس أي نشاط غيره.

- ما الذي أخرك في النوم، هل سهرت ليلة أمس؟

اضبط أعصابك وزن كلماتك قبل خروجها ففيها النّجاة أو المشنقة، واحذر زلل اللسان فهو السبب الأول للهلاك وفي التجارب السابقة لآلاف المجرمين خير برهان! ولكن هل حقا صرت من المجرمين؟!.. كيف تتطور الظروف بهذه السرعة؟!..

- نعم يا بك، كانت ليلتي ليلاء لم تنم لي فيها عين، ولا أعلم حقا سببا لأرقي. ولكن هل لي بسؤالك عن سبب استدعائي من قبل سيادتكم؟

- بالطبع، وصلنا بلاغ ليلة أمس يفيد بأن المدعو "عبد القهار محمود السالم" قد قتل على باب بيته جراء ضربه على رأسه بحجر، ألا يعني هذا الاسم لك شيئا؟

وحاولت جهدي أن أبدو طبيعيا، وأظهرت مخائل التذكر على وجهي ممسكا بجبيني كأنني أنقب داخله عن الاسم، ثم اصطنعت علائم الدهشة وقلت:

- بلى، إنه زوج أمي السابق، وقد انقطعت الأسباب بيننا وبينه منذ ردح من الزمان، ولكن ما شأني أنا ووفاته رحمه الله، هل يشك بي أحدهم؟

وارتشف من كوب قهوة كان قائما أمامه، وأشعل سيجارة جذب منها أول جذبة ثم وضعها على المنفضة، وجعل يسوي شاربيه الرفيعين بإبهامه وسبابته -كأنه يؤدي دورا تمثيليّا- قبل أن يجيب:

- كلا، ولكننا معنيون بالتحقيق مع كل من له صلة به حتى وإن كانت صلة قديمة كصلتكم، وقد وقفنا على طلاقه لأمك رحمها الله قبل بضع سنوات. قل لي يا أحمد: أين كنت ليلة أمس؟

- قلت لك يا بك بأنّني كنت مؤرقا طوال الليل، ولم أخرج من البيت إلّا من أجل السير قليلا، فهذا ديدني منذ مدة.

- ولكن الجيران أفادوا بأنهم رأوك خارجا من البيت قبيل منتصف الليل بقليل رغم برودة الجو حينذاك، أثمة أحد يتمشى في مثل هذه الظروف الجوية؟

- اعذرني يا بيك على وقاحتي في الرد، ولكن هذه حياتي وأنا حر فيها ولا علاقة للجيران بها، أسير متى ما أردت وأنى شئت.

وصل به الأمر إلى سؤال الجيران عنّي! ولكن مهلا فإنّ أحدا من الجيران لم يرني ساعتذاك! وحتى ولو رآني أحدهم فإنّه لن يتعرف عليّ في غلس ذلك الوقت! الماكر!

- صحيح ما تقول، ولكنّك في تحقيق وبإزاء محقق، ومن شأن المحقق أن يطلع على مضمون حياتك في إبّان الجريمة.

- متأسف يا بك، تفضل وسل ما بدا لك.

قال وهو يهز برأسه:

- متى رجعت إلى شقتك؟

- لا أذكر الساعة تماما ولكنها كانت قد جاوزت منتصف الليل بقليل فيما أظن.

- وماذا فعلت حال رجوعك؟

- تناولت عشاءً خفيفا وشاهدت التلفاز ثم حاولت أن أستزير النوم.

- وماذا شاهدت على التلفاز؟

- لا أذكر ماذا عُرض بالضبط لأنّه جرت العادة أن أتنقل بين قناة وأخرى قبل أن أنام.

وصمتنا نحن الإثنين، وجعل الضابط ينظم أوراقا أمامه ثم أودعها درج المكتب، وعاد يحاورني:

- أخبرني يا أحمد: هل كنت تكره المجني عليه؟

- لقد انقطعت أخباره عني منذ سنوات طويلة، ولم يعد بيني وبينه أي صلة البتة، لقد كان يعنفنا في الصغر بالفعل، ولكنني لو علمت بنبأ وفاته لشاركت في الدفن ولكنت أول المعزين لآله. لقد مر وقت طويل جدا فلماذا أكرهه بعد هذا كله؟

- ولكنه كان يسيء إلى أمك؟

هل من شأن المحقق كذلك أن يخوض في أسرار البيوت؟ راودني هذا السؤال وكدت أقذف به في وجهه ولكن عقلني الخوف.

- كان ذلك من زمان طويل كما قلت. اذكروا محاسن موتاكم! رحمه الله وغفر له وجعل الجنة داره ومأواه.

وجعل ينظر في عيني كأنّه يسبر صدق كلامي، وتابع:

- هل تعلم أين كان يقطن المجني عليه؟

أأكذب في قولي أم ثمة ما يدل على علمي بالمكان؟!.. كيف لي أن أراجع شريط حياتي في هذه السرعة الجنونيّة؟!.. خشيت عاقبة الكذب فقلت في مواربة بعد فترة صمت فرضها جهدي الكاذب في محاولة التذكر:

- كان يسكن في ماركا الجنوبية فيما أذكر، ولكن كان هذا من زمان قديم، أما الآن فأقول صادقا بأنّني لا أعلم إن كان انتقل من مكانه أم ما زال يقطنه.

- ومتى كانت آخر مرة زرت فيها ماركا الجنوبية؟

آه! السائق!

- لا أذكر أنّي زرتها أبدا.

- حسنا، قل لي الآن يا أحمد: هل تعاقر الخمر؟

ودق قلبي في عنف. هل وشى بي واش؟ وكدت أن أسأله "هل رآني أحد؟" ولكنني كبحت نفسي في اللحظة المناسبة، وأجبت على سؤاله بنبرة مستغربة وأنا أتنفس الصعداء:

- كلا يا بك، الخمر كبيرة موجبة لغضب الله تعالى. ولكن اسمح لي أن أسألك عن داعي هذا السؤال؟

- الحق أنّ بعض العلائم الخاصة بالسكيرين تظهر واضحة على وجهك، مثل احمرار الوجه وجفاف الشفتين، على كل حال لا تشغل بالك كثيرا فلم يكن إلّا سؤالا عابرا ولا شأن له بالتحقيق لا من قريب ولا من بعيد.

لم ألحظ تغيرا يذكر على وجهي فهل يعبث بي يا ترى؟

- الحق أنّي أعاني منذ وفاة أمي من أرق ملازم ربما كان سبب ما يبدو عليّ مما قلت.

- ولكنك قلت في بداية الحديث إنّك نمت طويلا الليلة الفائتة!

آه! المصيدة تضيق على الفأر!.. والصياد يحكم قبضته على عنق الفريسة!.. مرة أخرى احذر زلات اللسان!

- لكل ليلة شأن، ربما كان نومي الطويل الليلة الفائتة بسبب من الإرهاق الناجم عن الأرق طوال الأسابيع الماضية.

- أليس لك معارف في محافظات أخرى؟
- نعم، وحتى في عمّان لا أعرف كثيرا من الناس.
- وما سبب ذلك؟
- لا أقارب لي يا حضرة الضابط، ثم إنّي كائن غير اجتماعي بطبعي، هذا كل ما هنالك.
- طيب، هذا كل شيء الآن، تستطيع الانصراف مصحوبا بالسلامة ولكن ربما استدعيناك فيما بعد إذا دعا إلى ذلك داع، فحاول ألا تغادر عمّان أبدا.

وحييته ثم خرجت من مكتبه، وغادرت المركز وأنا أخال العيون التي تصادفني في المسير في طوابقه عيونا ناريّة محدقة فيّ، فيما جعلت أسترجع في طريقي في الخارج كل حديثي مع المحقق، ولم أشعر حقا بأنّي أخطأت بشيء اللهم إلّا في جزئية الأرق وتناقضها مع نومي الطويل في الليلة الفائتة غير أنّني هوّنت على نفسي أنني أجبت جوابا مقنعا استدرك هنتي[1] ما في ذلك شك، ولكنني رجعت أتساءل عن داعي استجوابهم لي فازدادت وساوسي واستشرى اضطرابي، ثم طرأ لي خاطر الخمر. ما الذي جعل المحقق يسألني عنها؟!.. أحقا مرد ذلك إلى ما يظهر على وجهي من الدلائل؟!.. هل للخمر مفعول في الوجه يخفى عن عين شاربها ويلحظه بقية الناس؟!.. ولكن المحقق لم يرني قبل اليوم فكيف أقر بتغير في ملامحي أيّا

[1] الهَنَةُ، مفرد هنات وهنوات: وهي اليسير من الأخطاء.

كان التغير؟!.. وانداح في القلب سريعا فكر مرّ شل الأعصاب. وتذكرت سائق التاكسي مجددا. وصاحب الخمارة هل أفاد بمعلومات عن زبائنه ليلة الحادثة، وهل وصف لرجال الشرطة زبونا غرا جديدا -وصفا دقيقا- بحيث جعلهم يشكون بي؟ وتذكرت قارورة الخمر التي وضعتها على السور المقابل لبيت المجني عليه، فانخلع قلبي خوفا ورعبا.

وفي الشقة لم أستطع هدوءا ولا ضبطا للأعصاب أبدا، ومر الوقت مقطرا العذاب كأنّه كان يستمد دقائقه من دمي، وما أتى الليل أخيرا حتى خرجت متصنعا المشي أن يكون ثمة مخبر يتعقبني، وأوغلت في المشي حتى إذا اطمأنيت إلى أعين الرقباء أوقفت تاكسي وتوجهت إلى ماركا الجنوبية، وخطر لي في الطريق أن يكون السائق هو هو سائق الأمس فذعرت بشدة ولكنّني طالعته وكان كهلا على خلاف الآخر. لا بد أن أطمئن إلى أنّ علبة الخمر لم تمس. ولكن هيها أخذت وهيهم أخذوا البصمات عنها فلن يقفوا لبصمتي على أثر، ذلك أنّي ارتديت القفازات قبل أن أمس القارورة. وعند هذا الخاطر كنت أريد النكوص إلى البيت ولكن التاكسي كان قد شارف الموقع، فضلا عن الوسوسة بشأن مس القارورة من عدمه. وما وصلنا حتى نقدت صاحب التاكسي أجرته وسرت قرب بيت عبد القهار مستترا بالظلام. اقتربت بخطوات وئيدة من السور وفرحت إذ وجدت زجاجة الخمر في موضعها، فجعلت أسير بالقرب منها وكدت أمد يدي لالتقاطها ولكن رجلا جاء من الاتجاه المقابل فعدلت عن ذلك، وتابعت سيري

ومررت بجانبه دون أن أنظر إلى وجهه ولكن خلته يتفحص وجهي، وطفت حول السور ثلاث مرات حتى رأيت الشارع على حال كبيرة من الإقواء[1] فمشيت نحوها والتقطها بخفة ودسستها في معطفي، وجعلت أسير مبتعدا عن المكان، وما أوغلت في الطريق عدة أمتار حتى فاجأني رجلان يخرجان من زقاق إلى يميني، وهجما علي وكبّلاني وطرحاني على الأرض.

1 الإقواء: الإقفار. أقوى الشارع: أقفر، خلا.

17

قابع في السجن وحيدا بين جدران ثلاثة وقضبان باردة وسقف واطئ بلا زائر واحد إلّا ذكريات الحب الخائبة، ولكن هذه الآلام لم تتركني حتى وأنا فيه فهل أنتهي منها بالموت؟!.. والظلمة كثيفة خانقة كالكابوس إلّا أنّ الظلام في النفس أشدُّ إيغالا! ولا أعلم لم انتابهم الشّك إزائي ولكنني أظنه سائق التاكسي فعلا. وهأنذا اليوم أعد من مشاهير الناس -ما في ذلك شك- سواء على شاشات التلفاز أو في عنوانين الصحف، ولا بد أنّ الناس قد ألفوا عني قصصا ورووا أحاديث، ونسجوا أساطير وقصّوا خرافات، وتبادلوا حوارات لست منها في شيء، وتداولوا من حياتي أمورا نسيتها أنا اليوم، وأصبحتُ موضوع حديثهم على طاولات المقاهي وفي وسائل النقل وعلى مائدة العشاء. أحمد فايز، الشاب المدرس الخجول الذي لم ير منه أيّ إنسان مر به إلّا الأدب الجمّ والحياء المفرط. لقد تمخض حياؤه العسير عن مجرم خطير زلزل أركان الأرض وأنسى الدنيا همومها المعيشية. وأمي الآن مطمورة تحت أطباق التراب أو أنّها انحلت وصارت زادا للأرض أو أنّها استحالت تربة من نوع لا أعلمه تعشش فيها أنواع الحشرات وتتخذها القوارض موائل لها، أو ربما ذهبت بها مهابّ الريح الأربع إلى أربعة أركان المعمورة، أو أنّها صارت سائلا أحفوريا سوف تتقاتل عليه الدول يوما

والعجيب أنّ هذا مصير كل حي، فهل بعد هذا يا ترى تعلم شيئا مما آل إليه أمري؟!.. أما قبوعي وراء قضبان السجن المظلم فإنه يحاكي مثول القلب المحزون في جسد خاو من الروح، وإذا انتهى هذا القبوع إلى الحكم بالإعدام فبها ونِعْمَتْ ولكنّ السجن المؤبد مقرون بفراغ كبير لا سبيل إلى درء مثله المميت! ولا أعلم كيف ينقضي الزمن هنا وفيما إذا كان ذات الزمن الذي عشته قبلا في الخارج! وسوف يصير تأمل السقف وحساب أطوال القضبان بشبر اليد وعد الأرقام إلى ما لا نهاية ومراقبة الصراصير والنمل في طوافها اللانهائي تسليات عظيمة! فهل الزمن شعور داخلي أم هو مادة محسوسة؟!.. ولماذا يستطيل ظله على المنتظر؟!.. ولماذا أذكر أحداثا موغلة في البعد وأنسى ما قاله العابرون أمام العنابر منذ قليل؟!.. ولو خلق الله عجوزا خلقا مباشرا وقد أودع عقله -حال خلقه- كمّا من الخبرات الحياتية التجريبية، وأسكن قلبه مثلها من الآلام الحسيّة التي تتطلب سنوات طويلة من العمر، فهل يكون إنسانا مدركا واعيا رغم عمره الذي لا يجاوز الساعات؟!.. وهل سيصل العقل إلى الجنون أم أنّه يتشظى ويتناثر؟!..

وأقبل عليّ عسكري طويل نحيل متقارب المنكبين مفتول الشاربين أخطرني بأزوف موعد زيارة المحامي الموكل بقضيتي، وخرجت للقائه دون تهيئة وبلا مبالاة، واقتادني العسكري إليه وأنا مكبل بالأغلال في حجرة ضيقة مضاءة بنور أصفر باهت، ولما دخلتها ألفيت رجلا سمينا متقدما

قليلا في العمر، أبيض الوجهه ينتهي بلغد لين رخو، إلّا أنّه كان أنيق الهندام محلى الخنصر بفص ماسي. ونظر إليّ من حافة الإطار العلوي لنظارته قبل أن يدون بضع كلمات في كتاب يحمله، ثم قال مرحبا:

- أهلا يا أستاذ أحمد، أنا المحامي جمال الجاموس. أتمنى أن يكون الحال على خير ما يرام، وأن تكون مرتاحا وبخير وسلامة.

قلت بآلية:

- مهما رام المعذّبُ في الجحيم رحمة من الله فإنّه لن ينالها.

قال:

- وكّل الله. لقد قرأت تفاصيل جنايتك كما أذاعتها الصحف، واطلعت على النواقص في بيانات مكتب النيابة، والحق أنّها قضية شائكة نوعا ولكننا لن نعدم أملا في ردع حكم الإعدام، بل وربما في التخفيف من مدة السجن ما أمكن.

وخيل إليّ بغتة أنني أرى في أقصى الحجرة مخلوقا غريبا له رأس ثور وجذع إنسان وأرجل حصان، وواتتني رغبة عجيبة ملحّة في التعري حتى آخر قطعة من ملابسي.

ونادى متسائلا وهو يستغرب شرودي:

- أستاذ أحمد أنت معي؟

وسمعت صوته كأنّه قادم من قعر بئر سحيقة، ورجعت معه إلى العالم المحسوس فأجبته:

- ولكنني اعترفت بالقتل.

- قلت لك، لن نعدم أملا عطفا على حالتك النفسية من جهة، ولكونك كنت ثملا وفي غير وعي من جهة أخرى.

ماذا يدري هذا عن حالتي النفسيّة؟!.. كانت الخمر مشجعي على القتل ومحرري من قضبان العجز وهي اليوم تؤدي دورا خطيرا في سجني وتحكم عليّ بعجز لا نهائي فمتى ينتهي التناقض في هذه الحياة؟!.. وهل أنا إلّا معذّب؟!..

وقلت ضاحكا بعد أن طرأ على بالي خاطر سريع:

- يا أستاذ جمال أشكرك شكرا جزيلا لجهودك، ولكن لطفا منك أرح نفسك من عناء محاورتي فإنّك لن تجد عندي مالا أنقدك إياه نظير أتعابك، أما إذا كانت الحكومة قد وكلتك عني فإنّك لن تنال أجرك إلّا بعد تعب طويل.

قال مجيبا بعد أن جرع من كأس ماء كان قائما على طرف الطاولة التي جلسنا إليها جلستنا الحوارية:

- أنا موكل من طرف قريب لك وقد نقدني فعلا عربونا مقدما نظير أتعابي، بل إنّه تعهد كذلك بدفع كل نفقات القضية حتى منتهاها، فلا تشغل لك بالا بأمر المال، وأرجو منك أن تعاونني في خلاصك من هذا الشؤم الذي أنت فيه، معاونة الصديق للصديق.

باغتني قوله. قريب لي؟!.. من عساه يكون؟!..

وسألته مستغربا:

- لا أذكر أن لي قريبا واحدا في قيد الحياة، على الأقل من الأقارب الأدنين، فهل يمكن أن تخبرني باسم ذاك القريب الذي تزعم أنّه وكلك للدفاع عني؟

وعاد يجرع من كأس الماء وأنا أنظر إليه متسائلا، ولكن قبل أن يفتح فاه ناداه عكسري آخر غير الذي اقتادني إليه فنهض قاما واتجه نحو المخرج وهو يقول إنّه نسي أوراقا هامة ذات شأن بالقضية وإنّه سوف يعود بعد أن يجلبها، وطالعت ظهره وهو مدبر وخلت أن له ذيلا طويلا شبيها بذيل التمساح يجره وراءه في سيره. ثم أقبل إليّ عسكري آخر وخلت أنّ له أنيابا طويلة كأنياب الأفاعي، وأمرني أن أقف ثم اقتادني من ذراعي غير أنّه سلك مسلكا آخر غير مسلك السجن فساءلته عن الوجهة التي نتجه إليها، فأجابني بجفاء دون أن ينظر إلي:

- في انتظارك زائر!

وانشغل العقل في تخمينات شتى عن ماهيّة هذا الزائر. ترى من يكون؟!.. هل هو نفس القريب الذي وكّل لي المحامي وتكفل بأتعابه؟ أم يكون شخصا آخر لا شأن له بالأوّل؟ هل ثمة أناس خالفوا مبدأ البشر جميعا في الظهور وقت الحاجات؟!..

ومشينا في ممر طويل ووطأة الحيرة تزداد عليّ، ولكنّ حيرتي لم تلبث أن استحالت دهشة مقرونة بعدم التصديق حين وصلنا إلى بهو الزيارة وأشار العسكري إلى فتاة كانت تجلس في أقصى يمينها تقرأ في كتاب مفتوح على فخذيها، وما كان منّي إلّا أن هتفت مأخوذا بهول المفاجأة:

- ريم؟!..